وحـــدة السـورة القرآنـيـة

فى ضـوء الدراسات النـقدية والبـلاغية الحديـثة

دكتور

محمـد علـى سـلامة

النـاشــــر

مكتبة الآداب بالقاهرة


بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــداء

إلى القرآن الكريم

ذلك النبع الفياض الذى

لاينضب معينه ولاتنقضى عجائبه

إيمانا وحبا واستلهاما

الباحـــث

مقدمـــــــة

عشت عمـرى كلـه مـع القرآن الكريـم منذ أن تعلمـت الكـلام ، وحفظته صغيرا وتعلمت على يـد والـدى رحمـه اللـه ، وتعلمـت أحكـام تجويده أيضا على يديه، وساهمت الظـروف فـى أن أعيـش مـع القرآن وفى رحابــه أشـعر بحلاوتـه وأتـأمل فيـه ، وكثيرا مـاغلق علـى فهمـى واستعصى ، ولكن مــع كـل طـور مـن أطـوار حيـاتى الثقافيـة والعلميـة كانت تتفتح بعض هذه المغاليق، وظل القرآن الكريم هاديا لى فــى كثير من الدراسات التى أقدمت عليها فى الماجستير والدكتوراه ، ومابعدهما.

ورغم ذلك ظلت فى داخلى رغبة قوية فى بحث يتعلـق بـالقرآن وينصب عليه، وتهيبت ذلك طويلا، ولكن قدر الله لى أن أتولىفى أثنـاء عملى بالمملكة العربية السعودية تدريس مادة النصوص التحليلية ، وفى مقرراتها ضرورة دراسة نماذج من نصــوص القرآن والحديـث النبـوى الشريف ، ووقع اختيارى على بعض سور القرآن لدراستها مثل سـورة الحاقـة وسـورة الواقعـة مـن القرآن المكـى وسـورة الحجرات وسـورة المجادلـة مـن القرآن المدنـى ، فجعلنـى هـذا أسـتغرق فـى تـأمل النـص وتحليله .

وصحيح أنه فى البداية كان الهدف تعليمـى ، بمعنـى أنـه يركـز على تأمل أساليب النص القرآنى لغويا وبلاغيا ، ولكنى كنت أحب دائما أن أدعم نفسى بخلفية ثقافية حول القرآن ، وكان لدى بعضها الناتج مـن

خبرتى السابقة فى أثناء البحوث التى أجريتها وذخيرة من الكتب التى تتحدث عن بلاغة القرآن وإعجازه بحكم تخصصى فىالنقد العربى القديم، وحديث الإعجاز له صلة وثيقة به .

وفى أثناء ذلك ظهر كتاب الدكتور صلاح فضل " بلاغة الخطاب وعلم النص " وقرأته ثم أعدت قراءته ، وكانت قد تبلورت لدى فكرة عن وحدة السورة القرآنية دعمتها قراءة الكتاب الذى يتحدث عن النص باعتباره وحدة واحدة ، وإن تنوعت فى داخله الرموز والدلالات ، وكذلك البنى البلاغية بجانب البنى التعبيرية المكونة للنص لتتكامل منها بنية كلية له، فانشغلت بالموضوع وأخذت أراجع ماكتبه القدماء حول هذا الموضوع ووجدت كثيرا منهم يمسون الموضوع مسا سريعا ربما لتسليمهم بالأمر باعتباره بديهة مع أنهم تحدثوا فى مسألة التناسب بين السور والآيات فى داخل السورة الواحدة فى كتب علوم القرآن، بل وأفردوا له الكتب مثل كتاب السيوطى " تناسق الدرر فى تناسب السور" مع أنها بمنطقهم أيضا مسألة بدهية لتوحد المصدر وهو الله سبحانه وتعالى وصدق المبلغ وهو محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم ظهرت بعد ذلك كتب تناولت علم لغة النص تنظيرا وتطبيقا مما زاد من تمكن الفكرة لدراسة وحدة السورة فى ضوء هذه العلوم التى قدمت أدوات علمية على درجة كبيرة من الدقة يمكن أن تفيد كثيرافى هذا الموضوع وفى غيره من الموضوعات التى تتعلق بموضوع الإعجاز القرآنى برؤى وأدوات مختلفة عما سبق وقدمه

العلمـاء الذيـن طرقـوا هـذا الموضـوع مـن قبـل، وهـو تواصـل علمـى مشروع .

فقد قام باحث مغربى هو أحمد أبوزيد بدراسة مستفيضة حول دراسة التناسب المعنوى فى القرآن الكريم ، وفى أثنائها تحدث عن وحدة السورة من خلال فكرة التناسب وأفاد كثيرا مما قدمه علماء القرآن قديما وحديثا فى هذا الصدد ولاشك أن إقامتها على القرآن كله أدى إلى صعوبة المهمة التى تصدى لها بكفاءة كبيرة لايقلل منها بعض المزالق فى أحكام عممها مع وجود نماذج من آيات فى سور أخرى تخالفها ، ثم تصدى صبحى الفقى لتطبيق علم النص على السور المكية ، وهو أمر شاق بالطبع خاصة أن السور المكية تمثل نصف القرآن أو يزيد قليلا وعددها ضخم مما جعله من البداية يركز على بعضها وهو مايخالف العنوان ،ويدفع إلى التساؤل حول الاختيار والانتقاء ،وبالطبع لم يشر إلى مبررات هذا الانتقاء ، مع أنه بذل جهدا ينم عن وعى بعلم النص أو علم لغة النص .

وقد أفدت كثيرا منهما ومن غيرهما فى إطار هذه المحاولة التى لا أستطيع الزعم بأنها تلافت كل المزالق والأخطاء والتى حاولت منذ البدء أن أركزها على سورتين فقط أحدهما من القرآن المكى والثانية من القرآن المدنى ليكونا نموذجين ، وراعيت فيهما أن يكون متناسبين فى الحجم وهما سورة الحاقة وسورة المجادلة حتى تكون الأحكام أقرب إلى الدقة، والتطبيق مركز ، ومع هذا لاأستطيع الوفاء بحقهما

كاملا لأن القرآن الكريم كله أو بعضه أعظم من أن يحيط به علم ، والا مارأينا كله هذه الجهود التفسيرية والعلمية حوله منذ أربعة عشر قرنا ومازال وسيظل متجدد العطاء .

وفى النهاية أشكر كل من قدم لى يد العون فى إتمام هذا البحث بإمدادى بكتاب أو إفادتى بحوار أو مناقشة حول الموضوع ، وأخص تلميذى طالب البحث محمد عيد سعيد الذى أعاننى كثيرا بمتابعة كتابته على الحاسوب فوفر لى كثيرا من الوقت والجهد، وقبل ذلك كان يوفر على مشقة البحث أحيانا عن كتاب افتقدته من مكتبتى فله ولكل من عاوننى جزيل شكرى وامتنانى.

كما أتقدم بالشكر والعرفان مسبقا لكل من يقرأ هذا البحث ويوقفنى على مزلق فيه أو نقص لأن هذا من شأنه أن يضيف إلى البحث دقة أتمناها .

وفى النهاية فإن أخطأت فمن نفسى وأسأل الله العفو ، والقراء المعذرة وإن أصبت فمن الله وعليه قصدى وهو نعم المولى ونعم المستعان.

د. محمد على سلامة

القســـم الأول

المهـــاد النظـــرى

لوحـــدة السورة

وحدة السورة عند القدماء والمحدثين

أولا: عند القدمـــاء:

كـان موضـوع وحـدة السـورة القرآنيـة مثـار حديـث كثـير مـن المفسرين والعلماء الذين تناولوا قضية الإعجاز القرآنى خاصة أو تحدثوا عن القرآن بصفة عامة مرة حول مدلول لفظ " قرآن" هل ينطبق على القرآن كله أو بعضه ؟ ومن خلال النقاش خرجت آراء تقول إن بعض سور القرآن لاتنتظمه وحدة لاشتماله على موضوعات مختلفة، وأكثر الآراء على أنها (أى السورة القرآنية) وحدة واحدة مهما تشعبت موضوعاتها وإلا ماسميت سورة لأن دلالة التسمية تنطلق من الإحاطة أو القوة كما يشير صاحب البرهان فى علوم القرآن نقلا عن الجعبرى (وهو صاحب شرح الشاطبية) " الحكمة فى تقطيع القرآن سورا أن تكون كل سورة، بل كل آية فنا مستقلا وقرآنا معتبرا، وفى تسوير السورة تحقيق لكون السورة بمجردها معجزة، وآية من آيات الله تعالى"(١).

والغريب أنهم اختلفوا حول تسمية السورة بهذا الاسم هل هو من عند النساخ أم هو أمر توقيفى من الله سبحانه وتعالى؟ ويبين ذلك رد الجاحظ على من سأل عن ذلك وأجابه بأنه توقيفى. وقد خصص

---

(١) الزركشى : البرهان فى علوم القرآن، تحقيق أحمد ابو الفضل ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٧٢، ج١ ، ٢٦٤.

السيوطى النوع السابع من كتابه " الإتقان فى علوم القرآن " لذكر الروايات الكثيرة حول تسميته قرآنا واجتهاد المفسرين فى معرفة أسباب تسميته بهذا الاسم ، ثم يبين الأسماء المختلفة للسور [1]، وقد قلت غريبا لأن هذا الأمر لايحتاج إلى التدليل، فقد ذكره القرآن ، وتكرر فى أكثر من موضع " وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله" [2]، ثم قال فى أول سورة النور " سورة أنزلناها وفرضناها" إذن يكون الاسم توقيفيا من عند الله عرفه النبى صلى الله عليه وسلم وأمر به فى القرآن الكريم ، وحينما كانت تتنزل عليه الآيات ويأمره جبريل أن يضعها فى موضعها من السور.

وإذا كان الأمر كذلك فإن معنى هذا أن السورة لابد أن تنتظمها وحدة سواء كانت داخليةأو خارجية من خلال منطق التسوير أى الجمع بين آيات داخل إطار أوسوار يمكن أن يكون موضوعا أواحدا أو مضمونا محددا ، أو مناسبة نزول تحدد الموضوع الذى نزلت فيه وهذا ماقصدته بالوحدة الخارجية.

ولقد مر النقاد والبلاغيون القدماء على هذا الموضوع مرورا عاما وفى إطار الحديث عن إعجاز القرآن خاصة أنهم انطلقوا فيه من رؤى بلاغية تبرز نموذجية بلاغة القرآن وتفوقها على ماعداها

---

(١) السيوطى : الإتقان فى علوم القرآن ، ط ٣ ، الحلبى ، ١٩٥١، ص ٥٠- ص ٥٧.

(٢) البقرة : آية ٢٣

فالباقلانى يركز فى مقارنته هذه على نقطة التفاوت ، ويضرب مثلا بمعلقة امرئ القيس التى يتخذها الأدباء والنقاد مثالا فى أوليتها وابتكارها المعانى، ويوضح كيف تفاوتت بين الإجادة والترذل أو التفحش الذى جعله أحيانا يهدم ماجاء فيها من مواضع إجادة ويحاكمها أخلاقيا بينما القرآن لايحدث فيه هذا أبدا يقول:" وفى ذلك معنى ثابت : وهو أنه عجيب نظمه وبديع تأليفه لايتفاوت ولايتباين علىمايتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف فيها ،من ذكرقصص ومواعظ واحتجاج وحكم وأحكام ، وإعذار وإنذار ، ووعد ووعيد، وتبشير وتخويف ، وأوصاف وتعليم أخلاق كريمة وشيم رفيعة وسير مأثورة، وغير ذلك من الوجوه التى يشتمل عليها ونجد كلام البليغ الكامل والشاعر المفلق والخطيب المصقع يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور، فمن الشعراء من يجود فى المدح دون الهجو، ومنهم من يبرز فى الهجو دون المدح ومنهم من يسبق فى التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجود فى التأبين دون التقريظ، ومنهم من يغرب فى وصف الإبل والخيل أو سير الليل أو وصف الحرب أو وصف الروض أو وصف الخمر أو الغزل أو غير ذلك مما يشتمل عليه الشعراء ويتداوله الكلام، ولذلك ضرب المثل إذا ركب، والنابغة إذا رهب، وبزهير إذا رغب ، ومثل ذلك يختلف فى الخطب والرسائل وسائر أجناس الكلام ومتى تأملت شعر البليغ رأيت التفاوت فى شعره على حسب الأهوال التى يتصرف فيها ...

وقد تأملنا نظم القرآن فوجدنا جميع مايتصرف فيه من الوجوه التى قدمنا ذكرها على حد واحد فى حسن النظم وبديع التأليف والرصف ، لاتفاوت فيه ولا انحطاط عن المنزلة العليا، ولا إسفال فيه إلى الرتبة الدنيا، وكذلك قد تأملنا مايتصرف إليه وجوه الخطاب من الآيات الطويلة والقصيرة فرأينا الإعجاز فى جميعها على حد واحد لايختلف"(١).

ويستمر هكذا فى بيان الفرق بين بلاغة القرآن الكريم التى لاتفاوت فيها وبين بلاغة البشر التى يحدث فيها تفاوت ويذكر أمثلة كثيرة من شعر الشعراء، ويتحدث عن شعر البحترى وأبى نواس وابن الرومي، ثم من النثر ويبدأ بخطب النبى صلى الله عليه وسلم وخطب الصحابة. ويوضح مدى تفوق القرآن عليها فى البلاغة والفصاحة ثم يعمد إلى قصيدة امرئ القيس لبيان الوجوه التى من خلالها يتبين إعجاز القرآن يقول :" وإذا أردنا تحقيق ماضمناه لك فمن سبيلنا أن نعمد إلى قصيدتمتفق على كبرمحلها وصحة نظمها وجودة بلاغتها ومعانيها وإجماعهم على إبداع صاحبها فيها مع كونه من الموصوفين بالتقدم فى الصناعة والمعروفين بالحذق فى البراعة فنوقفك على مواضع خللها وعلى تفاوت نظمها وعلى اختلاف فصولها وعلى كثرة فضولها وعلى شدة تعسفها وبعض تكلفها وماتجمع من كلام رفيع يقرن بينه وبين كلام

---

(١) الباقلانى، إعجاز القرآن ، إعداد ممدوح حسن محمد ، ط١ ، دار الأمين بالقاهرة، ١٩٩٣ ، ص ٥١ - ٥٢.

وضيع وبين لفظ سوقي يقرن بلفظ ملوكي وغير ذلك من الوجوه التي يجيئ تفصيلها ونبين ترتيبها وتنزيلها"(١).

وبعد أن يستعرض القصيدة مبينا اوجه التمايز وأوجه القصور مبرزا التفاوت داخل القصيدة الواحدة وهي التي أشاد بها النقاد، ويتجاوز عن الاتيان بأشعار أخرى نموذجا للتفاوت يتحدث عن القرآن ويتحدث عن الفصاحة الممتدة فيه بالرغم من طوله. وكان ضروريا أن يضرب مثلا بسورة واحدة تتعدد فيها الموضوعات والقصص ويظل إعجازها قائما وتظل فصاحتها واحدة. ويختار سورة النمل لأنها تشمل عدة قصص تبرز قدرة الخالق ويقول عنها " وانظر إلى الكلمات المفردة القائمة بأنفسها في الحسن وفيما تتضمنه من المعاني الشريفة . ثم ما شفع به هذه الآية وقرن به هذه الدلالة من اليد البيضاء عن نور البرهان من غير سوء ثم انظر في آية آية وكلمة كلمة هل تجدها كما وصفنا من عجب النظم وبديع الرصف؟ فكل كلمة لو أفردت كانت في الجمال غاية وفي الدلالة آية ، فكيف إذا قارنتها اخواتها وضامتها ذواتها تجري في الحسن مجراها وتأخذ في معناها، ثم من قصة إلى قصةومن باب إلى باب من غير خلل يقع في نظم الفصل إلى الفصل، وحتى يصور لك الفصل وصلا ببديع التأليف وبليغ التنزيل"(٢).

---

(١) المرجع السابق ،ص ١٥٠.

(٢) نفسه ، ص ١٧٧-١٧٨.

وفى النهاية يطلب التفكر والتدبر فى الأمر سواء على مستوى سورة واحدة أو سور القرآن كله يقول " ثم فكر بعد ذلك فى شئ أدلك عليه، وهو تعادل هذا النظم فى الإعجاز فى مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة، فأجل الرأى فى سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة وتدبر الخواتم والفواتح والبوادئ والمقاطع ومواضع التنقل والتحول ثم اقض ماأنت قاض، وإن طال عليك تأمل الجميع فاقتصر على سورة واحدة أو على بعض سور "(١).

ولكننا نلاحظ أنه حتى حينما أتى بسورة النمل نموذجا لم يفرد لها حديثا يبين أوجه الترابط والوحدة فيها، ولكن جاء كلامه عاما ينطبق عليها كما ينطبق على القرآن كله من بلاغة وفصاحة وإعجاز إلى غير ذلك من الأوصاف.

وقد نقل السيوطى فى الإتقان أقوال بعض العلماء القدماء فى موضوع مناسبات الآيات والسور وبعضها يشير إلى ترابط الآيات داخل السورة الواحدة مما يعد حديثا ضمنيا عن وحدة السورة بجانب الحديث عن القرآن كله وترابطه فى إطار وحدة واحدة ، وأورد رأى فخر الدين الرازى فى هذا الموضوع حيث يقول " أكثر لطائف القرآن مودعة فى الترتيبات والروابط" (٢) وقوله حول سورة البقرة " من تأمل فى لطائف نظم هذه السورة وفى بدائع ترتيبها علم أن القرآن كما أنه

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٠.

(٢) الإتقان للسيوطى ، ج٢ ، ص ١٠٨.

معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه فهو أيضا بسبب ترتيبه ونظم آياته ولعل الذين قالوا إنه معجز بسبب أسلوبه أرادوا ذلك"(١)، كما أورد رأى ابن العربى فى سراج المريدين حول " ارتباط أى القرآن بعضها ببعض حتى يكون كالكلمة الواحدة متسقة المعانى منتظمة المبانى"(٢).

كما يورد رأى العلماء فى أن الشيخ أبابكر النيسابورى هو أول من أظهر علم المناسبة " وكان غزير العلم فى الشريعة والأدب ، وكان يقول على الكرسى إذا قرئ عليه لم جعلت هذه الآية إلى جنب هذه ، وماالحكمة فى جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة" (٣) ولكنه أورد رأى الشيخ العز بن عبدالسلام حول الأمر وهو أن " علم المناسبة علم حسن لكن يشترك فى حسن ارتباط الكلام أن يقع فى أمر مرتبط أوله بآخره فإن وقع على أسباب مختلفة لم يقع فيه ارتباط ومن ربط ذلك فهو متكلف بما لايقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عن مثله حسن الحديث فضلا عن أحسنه فإن القرآن نزل فى نيف وعشرين سنة فى أحكام مختلفة شرعت لأسباب مختلفة. وماكان كذلك لايتأتى ربط بعضه ببعض"(٤). وإن كان يرد عليه الشيخ ولى الدين الملوى بقوله : " قد وهم

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

(٢) نفسه ، الصفحة نفسها .

(٣) نفسه ، الصفحة نفسها .

(٤) نفسه، الصفحة نفسها .

من قال لايطلب للآى الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة . وفصل الخطاب أنها على حسب الوقائع تنزيلا وعلى حسب الحكمة ترتيبا وتأصيلا، فالمصحف على وفق مافى اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته لتوقيف كما أنزل جملة إلى بيت العزة ، ومن المعجز البين أسلوبه ونظمه الباهر ،والذى ينبغى في كل آية أن يبحث أول كل شئ عن كونها مكملة لما قبلها أومستقلة ثم المستقلة ماوجه مناسبتها لما قبلها ففى ذلك علم جم ، وهكذا فى السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وماسيقت له"(١).

وواضح من الحوار السابق بين العلماء القدماء أن تركيزهم كان منصبا على مناسبة الآيات مع بعضها، وإن كان يبدو من خلال سطوره تلميحا إلى وحدة كل سورة ثم ارتباط السور ببعضها لتشكل وحدة متكاملة للقرآن كله ، كما يبدو من خلاله أيضا إشارة إلى السياق وذلك فى قول الملوى " وجه اتصالها بما قبلها وماسيقت له" ، وكان مستندهم الوحيد والقوى فى وقت واحد أنه نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم هكذا وبالتالى فإن الحكمة الإلهية اقتضت هذا، ولابد أن هناك حكمة فى هذا الترتيب ، وهذه الصورة التى نزل عليها القرآن توقيفية من عند الله، وتوافق مافى اللوح المحفوظ ، وربما كان هذا السبب نفسه هو الذى استندوا عليه حاجزا بينهم وبين الاجتهاد فى فهم هذه الحكمة، مع أن بعض المفسرين حاول فى تفسيره - خاصة التفسيرات

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

التى طبعت بطابع الرأى - أن يبين علة ارتباط هذه الآية أو تلك بما قبلها ، كما فعل الزمخشرى فى الكشاف والفخر الرازى فى التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب، وأحيانا كان يضيف لمحة يسيرة عن السورة كلها، ولكن جهودهم توقفت عند هذا الحد.

ولتركيز الحديث حول المناسبة ظهرت مؤلفات فى هذا المجال، وهى على أية حال قليلة، وقد تركزت على مناسبة السورة للسورة أو الآية للآية، تحدث فيها السيوطى حديثا بديعا فى الإتقان وفى أسرار التنزيل واختصر منه موجزا سماه " تناسق الدرر فى تناسب السور" وبين مدى ارتباط سور القرآن ببعضها ، وانطلق من المعنى الكامن فى آخر كل سورة ليوحى بمقدمة أو فاتحة السورة التى تليها مثلما فعل مع سورة الفاتحة وسورة البقرة حيث قال :" افتتحت البقرة بقوله (الم ذلك الكتاب) فإنه إشارة إلى الصراط المستقيم فى قوله :" اهدنا الصراط المستقيم ، كأنهم لما سألوا الهداية إلى الصراط المستقيم قيل لهم: " ذلك الصراط الذى سألتم الهداية إليه هو الكتاب... وهذا معنى حسن يظهر فيه سر ارتباط سورة البقرة بالفاتحة"(١)، وهكذا فى باقى سور القرآن حتى نهايته ، يبين ارتباط كل سورة بما قبلها ، حتى وإن جاءت سور بين السورتين المناسبتين يحاول قدر الإمكان بيان ارتباطها كما فعل فى سورة التين حيث جاءت بعد الضحى والشرح وبالرغم من أنها

---

(١) السيوطى : تناسق الدرر فى تناسب السور ، تحقيق عبدالله محمد الدرويش ، دار الكتاب العربى ، سوريا ، ط ١، ١٩٨٣، ص٢٥-٢٦.

ترتبط معنويا بسورة الشمس خاصة فى قوله تعالى " ونفس وماسواها" فذكر فى سورة التين " لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم " وبالتالى فإن بينهما ثلاث سور هى الليل والضحى والشرح ، ذكر لطيفة عن ابن عطاء الله السكندرى أنه لما فكر فى هذه الآية " فكشف لى عن اللوح المحفوظ فإذا مكتوب فيه : لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم روحا وعقلا، ثم رددناه أسفل سافلين نفسا وهوى" ، فظهر له مناسبة التين للشرح يقول " فظهر من هذا مناسبة وضعها بعد (ألم نشرح) فإن تلك أخبر فيها عن شرح صدر النبى صلى الله عليه وسلم وذلك يستدعى كمال عقله وروحه أى كلاهما فى القلب الذى محله الصدر ، وعن تبرئته من الوزر الذى ينشأ عن النفس والهوى ، وهو معصوم منهما، وعن رفع ذكره حيث نزه مقامه عن كل وصم"[(١)].

وبصرف النظر عن أن ابن عطاء ذكر أن ذلك كشف من اللوح المحفوظ، وقد يكون تفسيره للأمر، فوجد فيه السيوطى ضالته من خلال تأويل معنوى يربط مابين السورتين فى محاولة لتفسير سر مجاورتهما، فإننا بإزاء اجتهاد أو محاولة فهم الأمر التوقيفى الإلهى، اجتهاد مبنى على اللغة ودلالاتها وإيحاءاتها من خلال السياق القرآنى ويتضح هذا أكثر فى بيانه مناسبة مطالع السور ونهاياتها أو خواتيمها وكذلك مايربط بين آياتها من تناسب معنوى ، وهو يشير إلى ذلك فى خلال حديثه عن

---

(١) المرجع السابق ، ص٩٨.

هذا التناسب وإن لم يفرد سورة بالحديث الكامل عن تناسب آياتها وارتباطها بل يكتفى بأمثلة من السور.

وفى هذا الإطار يذكر مثلا تناسب خاتمة بعض السور لبداياتها وهى التى خصها بكتاب مستقل سماه " مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع" ويذكر فى الإتقان أمثلة منها وهو فى الكتاب نفسه لايخرج عن هذا الإطار الذى ذكره فى الإتقان ، ويضرب مثلا بسورة القصص" كيف بدئت بأمر موسى ونصرته وقوله فلن أكون ظهيرا للمجرمين وخروجه من وطنه، وختمت بأمر النبى صلى الله عليه وسلم بأن لايكون ظهيرا للكافرين وتسليته عن إخراجه من مكة ووعده بالعودة إليها لقوله فى أول السورة إنا رادوه إليك"(١)، وهذه إشارة إلى قوله تعالى " إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد" فى آخر سورة القصص ، مما يعبر عن وعى جديد أو روح جديدة فى النظر إلى الإعجاز القرآنى، ولكن لأن الرغبة كانت فى إبراز إعجاز القرآن كله من هذه الناحية فلم يركزوا على تناوله سورة سورة بل عبروا عليه كلـــه.

كما أشار السيوطى إلى الحروف المقطعة فىأوائل بعض سور القرآن الكريم ونقل رأى الزركشى فى البرهان الذى يحاول أن يسهم بجهد فى تفسيرها وذلك فى إطار موضوع التناسب إذ يقول: " ومن ذلك افتتاح السور بالحروف المقطعة واختصاص كل واحدة بما بدئت به

---

(١) الإتقان ، ج ٢ ، ص ١١١.

حتى لم تكن لترد آلم فى موضع الر ولا حم فى موضع طس قال وذلك أن كل سورة بدئت بحرف منها فإن أكثر كلماتها وحروفها مماثل له فحق لكل سورة منها أن لايناسبها غير الواردة فيها، فلو وضع ق موضع ن لعدم التناسب الواجب مراعاته فى كلام الله وسورة ق بدئت به لما تكرر فيها من الكلمات بلفظ القاف من ذكر القرآن والخلق وتكرير القول ومراجعته مرارا والقرب من ابن آدم وتلقى الملكين وقول العتيد والرقيب والسائق والالقاء فى جهنم والتقدم بالوعد وذكر المتقين والقلب والقرون والتنقيب فى البلاد وتشقق الأرض وحقوق الوعيد وغير ذلك"(١).

وإذا كان الاجتهاد السابق لايطرد فى جميع السور التى ذكرت فيها الحروف المقطعة مما يمكن اعتمادها قاعدة بالرغم من أنه ذكر ذلك فى سورة يونس التى تبدأ بـ (الر) وبين أنها ذكرت فيها مائتا مرة أى فى مئتى كلمة أو أكثر ، وسورة ص التى تعتمد معظم كلماتها على حرف الصاد وأضاف اليها دلالات الكلمات مثل ذكر الخصومات، وهذا يوحى بارتباط الصوت بالدلالة وهومااعتمد عليه فى الحديث عن السور التى بدأت بـ (الم)حيث ذكر أن الألف مخرجها الحلق، واللام من اللسان ، والميم من الشفتين على ترتيبها " وذلك إشارة البداية التى هى بدء الخلق ، والنهاية التى هى بدء الميعاد والوسط الذى هو المعاش من التشريع بالأوامر والنواهى وكل سورة افتتحت بها فهى مشتملة على

(١) المرجع السابق ، ص ١١٢، ١١٣.

الأمور الثلاثة وسورة الأعراف التى زيدت فيها الصاد على الم لما فيها من شرح القصص، قصة آدم ومن بعده من الأنبياء ولما فيها من ذكر فلا يكن فى صدرك حرج منه"[1].

وكل ذلك يوحى بمحاولة فهم القرآن واللغة فى آن واحد وربط للصوت اللغوى بمدلولات الكلمات ، وجاء مجملا دون تفصيل، بمعنىأنه لم يأخذ مثلا سورة منّ التى ذكرها ويبين مدى النسبة والتناسب بين هذا الحرف وباقى حروف اللغة المذكورة فى السورة حتى يدعم رأيه ويأخذ مصداقيته ، لكنه علىأى حال اجتهاد يفيد أى دارس عندما يتعرض لمثل هذا الأمر فيمكنه الانطلاق منه والاعتماد عليـــه.

ولو جمعت أقوالهم حول الفواتح والخواتم ، وتناسب الموضوعات لها وبراعة الافتتاح وروعة الختام لتنبيه السامعين، والموضوعات التى تضمنتها السور ، وكذلك الأدوات التى تعلق بها الآيات ببعضها داخل السورة مثل العطف أو التفسير أو بيان السبب فى الحكم أو تناسب الفواصل فى السور المكية خاصة لربما خرج لنا مؤلف يبين وحدة السورة من خلال كل هذه النقاط، وربما كان تخوفهم من الوقوف أمام معضله مخالفة سورة من السور لاجتهادهم سببا فى إحجامهم عن هذا ، أو ربما كان هم كل واحد من المتحدثين أن يعم كل القرآن بالحديث دون الوقوف أمام سورة واحدة سببا آخر فىهذا

---

(١) المرجع السابق ، ص١١٣.

الإحجام ،وربما أيضا وجدوا أن مسألة من المسائل تصح فى سورة ولاتصح فى الأخرى؛ مثل أن تكون بداية السورة مناسبة لما ذكر فيها، ولم يجدوا هذا فى نهايتها ، مع أنهم لو نظروا لاجتهاد واحد آخر منهم حول تناسب الختام مع موضوعات السورة لحققوا توفيقا بين الاثنين ، ولكن هذا لم يحدث وبقيت آراؤهم متناثرة فى داخل الحديث عن موضوعات متنوعة فى إطار التناسب .

ولاشك أن هذا سيفيدنى فى هذا البحث، وسأعتمد عليه حين أحاول التطبيق على النموذجين اللذين اخترتهما بالإضافة إلى الجهود الحديثة المتمثلة فى أقوال المحدثين وسأعرض لها بعد ذلك مباشرة، وكذلك الأطروحات الحديثة فى النقد وعلم النص اللذين يمكن أن يقدما إطارا عمليا لبيان وحدة السورة القرآنية مهما اختلفت الموضوعات التى تتناولها، فتقدم لمحة أخرى فى موضوع الإعجاز القرآنى.

ثانيا : عند المحدثين :

تحدث كثير من المحدثين عن وحدة السورة، منهم المفسرون ، ومنهم البلاغيون والنقاد، والواقع أن الحديث كان مغلفا دائما بالموضوعات البلاغية ، وكان الحديث أيضا في إطار بيان الإعجاز البلاغي للقرآن من رؤى مختلفة ، فقد تحدث عن هذا الموضوع أولا الشيخ سيد قطب وذلك في كتابه التصوير الفني في القرآن ، وكذلك في كتابه مشاهد القيامة في القرآن وذلك من خلال الرؤية التي انطلق منها في نظرته للقرآن وهو تميزه بالتصوير ليجعل المتلقي يعيش مايسمع وكأنه يراه فيتفاعل معه ، ويمتزج به وهذا ماحدث للجماعة المسلمة الأولى.

وحين يبحث عن منبع السحر في القرآن الكريم والذي تأثر به الوليد بن المغيرة حتى إنه وصف القرآن به يقول :" لابد إذن أن السحر الذي عناه كان كامنا في مظهر آخر غير التشريع والغيبيات والعلوم الكونية، لابد أنه كامن في صميم النسق القرآني ذاته ، لافي الموضوع الذي يتحدث عنه وحده . وإن لم نغفل مافي طبيعة العقيدة الإسلامية من قوة وجاذبية، فهذه الخصائص إنما تتجلى من خلال التعبير الجميل المؤثر المعبر المصور"[1]، ويضرب مثلا لهذا بسورة العلق وهي أول سورة نزلت في القرآن الكريم ،ويستعرض وحدتها بالرغم من إقراره

---

(١) سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، ط١٠ ، دار المعارف بمصر ،١٩٨٦، ص ١٩.

بأنها فواصل متناثرة ، لكنها عن طريق التصوير للمعانى التى تضمنتها خرجت متكاملة ويعقب على ذلك بقوله :" هذا ابتداء قوى منذ اللحظة الأولى للدعوة، وهذه الفواصل التى تبدو فى الظاهر متناثرة ، هى هكذا - من الداخل - متناسقة وهذا نسق من القرآن فىالسورة الأولى الشبيهة فى ظاهرها بسجع الكهان أو حكمة السجاع"(١).

وفى كتابه " مشاهد القيامة فى القرآن " الذى يركز فيه على مشاهد وصور ليوم القيامة بكل تجلياته من النفخ فى الصور وانشقاق السماء ومافيها ورج الأرض ودكها نجده يتحدث عن وحدة الموضوع وإن كان هذا لايمنع إيراد سورة بكاملها مثل سورة القارعة وكيف جاءت لوحة تصويرية بديعة تبرز هول يوم القيامة ، ولايضاح وحدة الموضوع تناول السور - ومعظمها مكى - بترتيب النزول لابترتيبها المثبتفى المصحف الذى بين أيدينا(٢).

ولكن جهده الأكبر فىهذا المجال يتضح فى تفسيره المشهور "فى ظلال القرآن " حيث يقدم لكل سورة ببيان الموضوع الأساسى الذى تتحدث عنه ، وتفريعاته والسياق الذى يربط هذه الموضوعات فىنطاق الموضوع الواحد يقول فى سورة البقرة :" هذه السورة تضم عدة موضوعات ، ولكن المحور الذى يجمعها كلها محور واحد مزدوج

---

(١) المرجع السابق ، ص ٢١.

(٢) لمزيد من التوضيح راجع سيد قطب : مشاهد القيامة فى القرآن ، ط ٨ ، دار المعارف بمصر ١٩٩٤.

يترابط الخطان الرئيسيان فيه ترابطا شديدا ، فهى من ناحية تدور حول موقف بنى اسرائيل من الدعوة الإسلامية فى المدينة واستقبالهم لها، ومواجهتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللجماعة المسلمة الناشئة على أساسها .. وسائر مايتعلق بهذا الموقف بما فيه من تلك العلاقة القوية بين اليهود والمنافقين من جهة ، وبين اليهود والمشركين من جهةأخرى.. وهى من الناحية الأخرى تدور حول موقف الجماعة المسلمة فى أول نشأتها ، وإعدادها لحمل أمانة الدعوة والخلافة فى الأرض ، بعد أن تعلن السورة نكول بنى اسرائيل عن حملها ، ونقضهم لعهد الله بخصوصها وتجريدهم من شرف الانتساب الحقيقى لإبراهيم – عليه السلام – صاحب الحنيفية الأولى ، وتبصير الجماعة المسلمة وتحذيرها من العثرات التى سببت تجريد بنى إسرائيل من هذا الشرف العظيم .. وكل موضوعات السورة تدور حول هذا المحور بخطيه الرئيسيين "(1).

وفى حديثه عن سورة آل عمران يقول :" ولايتم التعريف المجمل بهذه السورة حتى نلم بثلاثة خطوط عريضة فيها ، تتناثر نقطها فى السورة كلها وتتجمع وتتركز فى مجموعها حتى ترسم هذه الخطوط بوضوح وتوكيد"(2)، وبعدأن يستعرض الخطوط الثلاثة ؛ الأول هو

---

(1) سيد قطب : فى ظلال القرآن ، ط ١٧، دار الشروق بمصر ، ١٩٩٠ ،، مجلد ١ ، ص٢٨.

(2) المرجع السابق ، ص ٣٥٧.

معنى الدين ومعنى الإسلام " ويتكىء سياق السورة على هذا الخط ويوضحه فى أكثر من ثلاثين موضعا من السورة بشكل ظاهر ملحوظ" والخط الثانى هو تصوير حال المسلمين مع ربهم " واستسلامهم له وتلقيهم لكل مايأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق، والخط الثالث هو التحذير من ولاية غير المؤمنين والتهوين من شأن الكافرين مع هذا التحذير، ويختتم حديثه عنها بقوله:" وهذه الخطوط الثلاثة العريضة متناسقة فيما بينها متكاملة فى تقرير التصور الإسلامى، وتوضيح حقيقة التوحيد ومقتضاه فى حياة البشر وفى شعورهم بالله ،وأثر ذلك فى موقفهم من أعداء الله الذى لاموقف لهم سواه"(١).

ويمضى هكذا فى الظلال كله يتحدث فى مقدمة السورة عن الموضوع الأساسى الذى تتحدث عنه والخيط الأساسى فيها ، والخيوط المتفرعة، وأحيانا يركز على الموضوع كما فعل فى مقدمة سورة البقرة وآل عمران ، وأحيانا يمزجه بفكرة التصوير النابع من رؤيته المتمثلة فى التصور القرآنى فتظهر فيه ملامح بلاغية وإن كان هذا لايعنى الوقوف على الصور البيانية المشهورة عند البلاغيين، ولكن بطريقته التى تحدث عنها فى التصوير الفنى للقرآن، ويحسب للرجل فى النهاية أنه أثار حفيظة كثير من الباحثين ولفت انتباههم للموضوع ، حتى وإن بدا فى كلامه بعض التأثر بما أثاره القدماء عن إعجاز القرآن

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٨.

أو المحدثون وأبرزهم مصطفى صادق الرافعي في كتابه " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية".

وقد تحدث طه حسين في مرآة الإسلام عن وحدة الموضوع في القرآن الكريم ، وضرب أمثلة بالقصص التي تكرر في أكثر من سورة ومع هذا فإنها تمثل موضوعا واحدا، وإن اختلفت صور التعبير عنه بما يلائم السورة التي ذكر فيها ، كما يبين روعة التعبير التي تأخذ المستمع أو القارئ عندما يقرؤها في هذا الموضع أوذاك فيظل على خشوعه، وفي إطار هذا الحديث يتكلم عن الفاصلة القرآنية ،ويعدها مظهرا أو رابطا لوحدة السورة ، يقول : " وأسلوب آخر في القرآن تتسق فيه فواصل الآيات ، ويلتزم فيها أو فيأكثرها نسق بعينه كالذي تراه في سورة مريم من ختام الآيات أو أكثرها بكلمات تنتهي بالياء المشددة المفتوحة"[1]، ويعدد الأمثلة بعد ذلك من السور التي تغلب عليها فاصلة معينة ، وإن كان في النهاية يصل إلى رأي وهو أن " كل سورة يتحد موضوعها أو تتداعى موضوعاتها تداعيا شديدا ويلتزم فيها نسق بعينه فيرجح أنها نزلت جملة وكل سورة تختلف موضوعاتها وتتباعد ولاتتداعى ولايلتزم في آياتها نسق بعينه فيرجح أنها نزلت منجمة"[2]. ، وهو رأي استنتاجي ربما تخالفه الكتب التي تحدثت عن أسباب النزول من خلال تاريخ الوقائع والحوادث، وكذلك السور المكية التي تنزلت

---

(١) طه حسين : مرآة الإسلام ، ط ٨ ، دار المعارف بمصر، ١٩٩٨، ص ١٥٢.

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٣.

بعض آياتها بالمدينة ، ومع هذا تتصل بموضوع السورة اتصالا أو بتعبيره تتداعى مع موضوعاتها تداعيا شديدا ولذلك يستدرك رأيه بقوله: "والقرآن كله من عند الله، وهو وحدة فى روحه وفى إعجازه مهما يختلف تنزيل سورة ومهما تختلف موضوعات السور ومذاهب القول فيـــــــــه"(١).

وحديث طه حسين يأخذ الطابع الأدبى حيث يلحظ نسقا معنويا أو صوتيا أو متكاملا منهما معا فى السورة القرآنية لتؤدى الغرض المطلوب منها فى ترغيب أو ترهيب أو بيان أمر للنبى صلى الله عليه وسلم حتى يصبر على إيذاء قومه ورفضهم له ، ويعبر وصفه لسورة الشعراء عن هذا المعنى يقول: " وسورة الشعراء كلها تروع وتبهر بقصر آياتها وانسجامها فى هذا القصر وفى اتساق الفواصل فى الآيات كلها حتى الآيات الأخيرة التى يقال إنها أنزلت فى المدينة، وإن كانت الآية الأخيرة من السورة أطول شيئا من سائر الآيات وهى منسجمة كذلك بآيتين تأتيان بنصهما فى آخر كل قصة، بل فى آخر كل حديث ماعدا آخر السورة وهما قول الله عز وجل : " إن فى ذلك لآية وماكان أكثرهم مؤمنين ، وإن ربك لهو العزيز الرحيم " فهما تأتيان ختاما لكل حديث ، وتوطئة للانتقال إلى حديث آخر أو قصة أخرى ، وقد فصلت

---

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

آيات السورة على قدر واحد حتى كأن إحداها لا تزيد علـى الأخرى أو تنقص عنها"(١).

ونلاحظ هذا التركيز على جماليات التعبير، وربط السورة كلها بنسق تعبيري موحد حتى كأنه يتصور تساويا كاملا بين الآيات، ثم التركيز على أمر آخر مستوحى من النسق الأدبي، وهو انتباهه للآيتين المكررتين ، وأتصور أنه يعدهما رابطة تربط كل قصص السورة فهي ختام للقصة أو الحدث ، وبداية للقصة الأخرى ، ولذلك يرى فيهما أداة انسجام للسورة.

وهذا النهج نفسه هو الذي ينتهجه محمد عبدالله دراز في كتابه "النبأ العظيم " الذي تحدث فيه حديثا مستفيضا عن الوحدة في القرآن كله وفي السورة نفسها ويراه أمرا معجزا حين يجمع شتات الآيات المنجمات في الحوادث والأزمان والأماكن المختلفة ليجعلها بناء واحدا، وكأنه يرد على طه حسين عندما قال إن بعض السور نزل جملة واحدة، ويرى عبدالله دراز أن هذا مظهرا من مظاهر الإعجاز ويستنتج منه أن هناك نسقا مسبقا أعد للقرآن قبل نزوله يقول : " ولو أنك نظرت إليها في الوقت نفسه فرأيتها وقد أعد لكل نجم منها ساعة نزوله سياج خاص يأوي إليه سابقا أو لاحقا ، وحدد له مكان معين في داخل ذلك السياج متقدما أو متأخرا إذا لرأيت من خلال هذا التوزيع الفوري المحدود أن هنالك خطة تفصيلية شاملة قد رسمت فيها مواقع

---

(١) نفسه ، ص١٤٩.

النجوم كلها من قبل نزولها ، بل من قبل أن تخلق أسبابها، بل من قبل أن تبدأ الأطوار الممهدة لحدوث أسبابها وأن هذه الخطة التى رسمت على أدق الحدود والتفاصيل قد أبرمت بآكد العزم والتصميم، فما من نجم وضع فى سورة ما ثم جاوزها إلى غيرها، ومامن نجم جعل فى مكان ما من السورة آخرا أو أولا ثم وجد عنه أبد الدهر مصرفا ولا متحولا"(١).

إذن فالأمر مردود إلى صورة وضعت مسبقا ربما كان يقصد صورة القرآن فى اللوح المحفوظ، وهو مايستمر فى بيانه بصورة أدبية مشمولة بعاطفة قوية نحو القرآن تبدو من خلال مقارنته الدائمة بين القرآن وأدب الأدباء والبلغاء الذى لايمكن أن توجد فيه هذه الوحدة الرائعة فى السورة القرآنية حتى ليكاد يشكل علىمن لم يعرف تاريخ القرآن أن السورة نزلت منجمة يقول: " اعمد إلى سورة من تلك السور التى تتناول أكثر من معنى واحد، وماأكثرها فى القرآن فهى جمهرته ، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدئت ؟ وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأت أولاها أخراها ؟... وأنا لك زعيم بأنك لن تجد ألبتة فى نظام معانيها أو مبانيها ماتعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت فى نجم واحد أم فى

---

(١) محمد عبدالله دراز : النبأ العظيم ، ط ٨ ، دار القلم بمصر ، ١٩٩٦ ، ص ١٥٠-١٥١.

نجوم شتى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منهـــا دفعة حتى يحدثـــك التاريخ أنها كلها أو جلها قد نزلت نجوما"(١).

وبعد هذا الحديث العام عن وحدة السورة من خلال روحها وتأثيرها فى المتلقى يبين أوجه هذه الوحدة خاصة فى ترابط المعانى سواء ماجاء منها متصلا بما هو حادث فى حينه أو بما سيحدث مستقبلا، وكذلك صور التعبير البيانى عن هده المعانى " فى نسق واحد من البيان تتعانق فيه الجمل والكلمات "(٢). ويصرب مثالا لذلك بسورة البقرة " التى جمعت بضعا وثمانين ومائتى اية . وحوت فيما وصل إلينا من أسباب نزولها نيفا وثمانين نجما وكانت الفترات بين نجومها تسع سنين عددا"(٣)، ومع هذا فإنها تقرأ وحدة واحدة ولذلك نراه يرسم لها خطا واحدا تسير به من بدايتها إلى نهايتهـ. ومع أنه يركز على استقلالية كل وحدة فيها ،ويهاجم أولئك الدين يصطنعون أو يتكلفون ربطا بين نجومها ، إلا أنه يرى أن العظمة تكمن فى هذه الإستقلالية وربطها بجو عام هو التأليف بين هذه النجوم وعلى هذه القاعدة ترى القران يعمد تارة إلى الأضداد يجاور بينها فيحرج بذلك محاسنها ومساويها فى أجلى مظاهرها، ويعمد تارة اخرى الى الأمور المختلفة

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٥٤.

(٢) نفسه ، ١٥٧.

(٣) نفسه ، ١٥٨.

فى أنفسها من غير تضاد فيجعلها تتعاون فى أحكامها بسوق بعضها إلى بعض مساق التنظير أو التفريع أو الاستشهاد أو الاستنباط ، أو التكميل أو الاحتراس، إلى غير ذلك ، وربما جعل اقتران معنيين فى الوقوع التاريخى، أو تجاور شيئين فى الوضع المكانى دعامة لاقترانهما فى النظم فيحسبه الجاهل بأسباب النزول وطبيعة المكان خروجا ،وماهو بخروج ، وإنما هو إجابة لحاجات النفوس التى تتداعى فيها تلك المعانى، فإن لم يكن بين المعنيين نسب ولاصهر بوجه من هذه الوجوه ونحوها، رأيته يتلطف فى الانتقال من احدها إلى الآخر إما بحسن التخلص أو التمهيد، وإما بإمالة الصيغ التركيبية على وضع يتلاقى فيه المتباعدان ويتصافح به المتناكران(١).

وهكذا يمضى محمد عبدالله دراز فى بيان وحدة السورة ويطبق ذلك على سورة البقرة التى يقسمها إلى مقاطع من معانى تنتظم فى عقد واحد تبدأ بمقدمة وأربعة مقاصد وخاتمة، وبالرغم من أنه قبل ذلك ينفى أن يسير فى طريق المفسرين الذين يخوضون فى التفاصيل إلا أنه حين يطبق يسلك مسلك المفسرين ، وإن كان يمزج هذا بالحديث البلاغى الرابط بين المعانى فى داخل كل وحدة ، ويربط بينه وبين المقصد الذى يليه ، ومن يرجع إلى تفسير الكشاف للزمخشرى، والتفسير الكبير للفخر الرازى لوجد نفس الروح مع فارق الاتساع فى التفسير والإيجاز والتركيز على المنهج عند دراز .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٦١ - ١٦٢.

وينطلق أحمد بدوى منطلقا أقرب إلى حديث القدماء كما أوردته فى القسم الأول من هذا البحث، وذلك فى الفصل الذى عقده للحديث عن السورة فى كتابه من بلاغة القرآن ، فهو يرى أن الهدف الذى أنزل من أجله القرآن وهو هداية البشر يعد رابطا أساسيا بين سور القرآن مهما اختلف حجمها وشكل التعبير فيها ، ثم بعد ذلك يكون هذا الهدف رابطا بين السورة التى تطول وتتعدد موضوعاتها " ولكل سورة فى القرآن هدف ترمى إليه "[١]، ويذكر هدف كل سورة من وجهة نظره، وهذا الهدف هو الذى يربط بين الموضوعات المتعددة" فسورة الأنعام تتجه إلى إثبات توحيد الله ونبوة رسوله، وإبطال مذاهب المبطلين ومابتدعوه من تحليل حرام أو تحريم حلال"[٢].

ولكى يوضح وجهة نظره يتحدث عن سورة المزمل حديثا مفصلا رابطا بين الأغراض المختلفة ومنتهيا إلى النتيجة التى يخاطب بها قارئه فيقول :" أنت بذلك التحليل ترى مدى الترابط بين الأغراض المختلفة ، واتساق كل غرض مع صاحبه وحسن التخلص وطبيعة الانتقال من غرض إلى آخر، وتستطيع أن تمضى فى تحليل سور القرآن على هذا النسق، وسوف ترى الترابط بين الأغراض قويا

(١) أحمد أحمد بدوى: من بلاغة القرآن . ط دار نهضة مصر بالفجالة، ١٩٥٠، ص ٢٣٤.

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

وثيقا"[1]، فإذا وجد آية وتصور أنها تخرج عن السياق مثلما فعل مع قوله تعالى مخاطبا نبيه صلى الله عليه وسلم فى سورة القيامة " لاتحرك به لسانك لتعجل به إنا علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرأنه ثم إن علينا بيانه " ويذكر رأى الفخر الرازى فى أن الرابط بينها وبين السورة التى تتحدث عن القيامة، الذى يرى أنها توجيه للإنسان الذى ذكر قبلها بأنه ينبأ بما قدم وأخر، وسيعرف نتيجة كل ماقدم ولا حاجة له إلى أن يتعجل قراءة القرآن ليعرف النتيجة ، ومن ثم تصبح الآيات جزءا فى النسيج العام للسورة.

وربما كان هذا الاجتهاد له وجاهته ، ولكنى أضيف إليه أن هناك ظاهرة تتكرر فى معظم السور التى تحدثت عن القيامة أو مشاهدها، وهى ذكر القرآن والتأكيد على أنه كلام الله ، وذلك لإحداث المصداقية فى نفس المتلقى أن مايسمعه أو يقرؤه عن القيامة هو حق لأنه كلام الله مالك يوم الدين وليس من كلام محمد صلى الله عليه وسلم فيعمل لهذا اليوم ، وهذا مانراه فى سورة القمر والرحمن والواقعة والحاقة وغيرها من سور القرآن التى تناولت هذا الأمر ، وعندما يوجه حديثه هذا للنبى صلى الله عليه وسلم (وليس للإنسان كما اجتهد فى ذلك ، فإنما يحقق غرضين فى آن واحد، التأكيد على صحة وثقة ماجاء فى السورة عن الحساب ، ونفى أن يكون هذا الكلام

---

(1) المرجع السابق ، ص٢٣٧.

من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، وهنا لايكون الأمر خارجا عن السياق بل تدعيما له .

ويستعرض بعد ذلك آراء السابقين فى تناسب الآيات مؤيدا من قال بذلك ومفندا رأى عز الدين بن عبدالسلام الذى أشرت إليه من قبل، ويستند إلى سببين:

السبب الأول : أن تكرار الموضوع الواحد فى بعض السور وسيلة لتكرير العظات والإنذار والتبشير فى صور متعددة مرات عدة، وفى ملمح بلاغى يوضح أن " للتكرير أثره فى تثبيت المعنى فى النفس وبلوغ العظة من الهدف الذى ترمى إليه ، ولن يكون للتكرير جماله إذا عمد القرآن إلى كل غرض على حدة فوضع آية بعضها إلى جانب بعض"(١).

أما السبب الثانى: فهو تاريخى ويرجع إلى نزل القرآن وترتيبه بأمر الله ، فحينما كانت تتنزل الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر كتاب الوحى أن يضعوها فى موضعها من السورة كما أمره ربه عن طريق جبريل حتى وإن كان فى المدينة وتنزلت آيات وضعت فى السور المكية وهكذا، كما يتحدث بعد ذلك عن أمر آخر رابط للسور وهو مفتتحها وختامها، فقد يكون افتتاح السورة موحيا بما فيها من موضوعات وبالتالى يعد رابطا، أو يكون

(١) المرجع السابق ، ص٢٣٩.

ختامها جامعا لمعانيها ومن ثم يعد رابطا لها ، وإن كان لم يتحدث عن مناسبة الخاتمة للبداية كما أشار بعض العلماء من قبل .

ويبدو أنه أوجز في القول عن خصائص الترابط بين السورة واكتفى بهذه الأقوال ليجعلها موضوعات عامة في كتابه حول القرآن كله، وقد تعرض قبل حديثه عن وحدة السورة لموضوعات عامة أيضا في البلاغة والنقد الأدبي والمنهج الأدبي في القرآن وإعجاز القرآن وفصل الحديث عن الإعجاز في ألفاظ القرآن والبلاغة والنظم وتخير اللفظ والفاصلة والغريب والمعرب والزائد والآية القرآنية وتكوينها والتقديم والتأخير والذكر والحذف والتنكير والتعريف وكل ماسبق أن ذكره الذين ألفوا في الإعجاز القرآني وبالرغم من هذه الإحاطة بكل مظاهر بلاغة القرآن التي تمثل إعجازه إلا أنه لم يطبقها في حديثه عن السورة ، بل اقتصر حديثه على ماذكرت آنفا ، ويعد الكتاب بقسميه الأول والثاني سياحة بلاغية في القرآن من ناحية الشكل والمضمون .

وحينما يتعرض لموضوع المنهج الأدبي في القرآن الكريم فإنه لايحدثنا عن المنهج الأدبي في التعامل مع القرآن ولكنه يتحدث عن أسلوب القرآن الأدبي فيقدم مقدمة عامة توضح مايقصده بالمنهج الأدبي " هذا المنهج الذي يتجه إلى إثارة وجدان القارىء إثارة روحية رفيعة تحدث السرور في النفس فتقبل ، أو تحدث فيها الألم فتأبى وترفض، والقرآن غني بذلك ، لأنه لايعتمد على التفكير وحده ليقنع

ولكنه يتكيء عليه وعلى الوجدان ليستميل "[1]، ويكمل بعد ذلك بأمثلة من آيات القرآن تبرز هذه المعانى التى تحدث عنها ، ويسير على هذا النهج فى الموضوعات كلها سواء دعمها بأمثلة مما قاله البلاغيون أو المفسرون، لكنه فى النهاية يعد مرجعا للموضوعات التى لابد للباحث فى القرآن الكريم أن يرجع إليها وتثير فيه رغبة البحث فى أى منها منفردة فهو يثير نقاطا كثيرة حول القرآن يمكن أن تكون منطلقات لأبحاث أخرى مستقلة فى هذه الموضوعات المطروقة .

ويخصص محمد محمود حجازى رسالته للدكتوراه والتى طبعت بعد ذلك فى كتاب للحديث عن الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم ، وفى الدعامة الأولى - ويبدو أنه ابتكر هذا المصطلح بديلاً عن الباب ، واستخدم لفظ البحث بدلا من الفصل - يتحدث فى البحث الثانى عن النظام الخاص لكل سورة، ويرى أن سور القرآن تنقسم إلى نوعين :

أ - نوع يشتمل علي غرض واحد وإن استتبع نظرات جانبية..

ب - نوع آخر لم يقتصر فيه على غرض واحد بل جمع أغراضا عديدة ، وطرق موضوعات كثيرة وإن كان للجميع هدف واحد ونهاية واحدة وتلك معجزة من أروع المعجزات التى امتاز بها القرآن الكريم"[2].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٧.

(٢) محمد محمود حجازى : الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم، ط١ ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٤١- ٤٢.

ويضرب مثالا لذلك بسورتى البقرة والنساء ويحيل إلى محمد عبدالله دراز فىموضوع سورة البقرة، ويستعرض هو بالتفصيل الأغراض المختلفة التى شملتها سورة النساء ، وفى النهاية ينتهى إلى ماانتهى إليه دراز من " أن السياسة الرشيدة فى دراسة النسق القرآنى تقضى بأن يكون هذا النحومن الدرس هو الخطوة الأولى فيه فلا يتقدم الناظر إلى البحث فى الصلات بين جزء منه ، وهى تلك الصلات المبثوثة فى مثانى الآيات ومطالعها ومقاطعها إلا بعد أن يحكم النظر فىالسورة كلها بإحصاء أجزائها وضبط مقاصدها على وجه يكون معوانا له على السير فى تلك التفاصيل عن بينة"(١)، كما يستند إلى رأى القدماء من تعلق كلام السورة ببعضه يقول: " ألست منعى أن السورة القرآنية(وبالطبع يقصد سورة النساء) احتوت على معان كثيرة، بعضها متعلق بالبعض فى وحدة تامة لأنها تعتبر قضية واحدة نازلة لغرض خاص، فلا محيص لمن أراد الفهم أن يرد آخر الكلام على أوله ، وأوله على آخره "(٢).

ولايزيد عن تكرار كلام السابقين لتدعيم كلامه ، لأنه من خلال عرض موضوعات سورة النساء اكتفى بالحديث عن كل غرض ولم يبين الرابط الذى يربط بين هذه الموضوعات ، وترك الأمر إلى النهاية التى تحدثت عنها فى الفقرة السابقة، ومعنى هذا أنه لم يفد كثيرا من

---

(١) المرجع السابق ، ص٤٨.

(٢) نفسه ، الصفحة نفسها .

كلام القدماء أكثر من نقل الأحكام العامـة التـى انتهـوا إليهـا ،ولـو تـأمل مافعله محمد عبدالله دراز في النبأ العظيم وحاول احتـذاءه لحقق هـدف الربط بين أغراض السورة المتنوعة بصورة أفضل مما جاء به.

ولذلك فإنه فى الدعامة الرابعـة يضـع عنوانـا لافتـا فـى غرابتـه وهو" عدم كمـال الوحـدة الموضوعيـة بالنسـبة لكـل سـورة ذكـر فيهـا الموضوع " ويطرح فى البداية ماشمل السور من مناسبات نزول ترتبـط بهذه الآيات التـى نزلـت منجمـة، وبعدهـا مباشـرة يؤكـد أنهـا مرتبطـة " الحق أنهـا مرتبطـة تمـام الإرتبـاط متماسـكة تمـام التماسـك ليـس بينهـا انفصـال أبدا ، وهذا مايسمى بالوحدة الموضوعية "(١). ومرة ثانية يقـول كلاما أشبه بالانشاء " ثم تنظر اليها فتجد فيهـا العجـب ، تجـد التجـانس والتلاؤم وتجد الألفة والإخاء فلا تنافر ولاتبـاين كقطعـة المـاس تعطيـك كل لون مع كل وضع ولكن بلا تباين ولافساد تلك حقيقة أصبحـت كمـا يقولون بديهة"(٢).

أما آخر الجهود فى هذا الإطار فهو جهد السيد تقى الدين المتمثل فى موسوعته التى بدأ إصدارها بعنوان" من الوجهة الأدبيـة فـى دراسـة القرآن الكريم " والذى يبدأ الحديث فيه باستعراض الجهـود السـابقة فـى قضيـة الإعجـاز البلاغـى للقرآن الكريـم منـذ القدمــاء وحتــى العصـر الحديث، ويخصص الباب الثانى من الجزء الأول لدراسة أسرار الجمال

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٢- ١١٣.

(٢) نفسه ، ص١١٣.

الفنى فى القرآن ، ويخصص الفصل الأول للإبداع الأدبى فى القرآن فى المفردات والتراكيب وفى حسن الاختيار والصياغة وفى المثل الأعلى، والفصل الثانى للقصة القرآنية، والثالث للمثل الأعلى فى الأدب (ويقصد بالطبع القرآن) حيث تدور محاوره كلها حول القرآن، ويصل إلى الباب الثالث المتصل بموضوعنا ويخصصه للوحدة العضوية فى السورة القرآنية، ويستعرض آراء السابقين مضيفا إليها رأى أحمد حسن الزيات وجوستاف لوبون اللذين يعارضان فكرة الوحدة الموضوعية فى السورة القرآنية وذلك فى الفصل الأول حول " تقسيم السور القرآنية" كما يذكر رأى المؤيدين مثل ابن القيم والزركشى وابن كثير فىفواتح التهجى باعتبارها رابطا يربط موضوعات السور التى نزلت فيها.

ويخصص الفصل الثانى للوحدة فى سورة البقرة وينقل الكلام الذى قاله محمد عبدالله دراز بالنص من غير أن يشير إليه ، وإن أضاف إليها بندا خامسا ومن يرجع إلى كتاب النبأ العظيم وكتاب من الوجهة الأدبية سيجد الأمر واضحا وضوح الشمس مع اختلاف بسيط هو أن دراز يجعلها أربعة مقاصد بينما السيد تقى الدين يجعلها خمسة مقاصد ، والاثنان فيهما مقدمة وخاتمة هما بنصهما [1].

---

(١) لمزيد من الايضاح، راجع النبأ العظيم، ص ١٦٣ ومن الوجهة الأدبية ،الجزء الأول ،ص١٨٥، غير أن السيد تقىالدين أضاف مقصدا خامسا جعله المقصد الأول، وعنوانه : أصناف الناس ثلاثة مؤمن وكافر ومنافق.

لكنه يتحدث عن الترابط بين عناصر السورة فيقول : " وأنت ترى من هذا التخطيط مدى التماسك والترابط بين عناصر هذه السورة الكريمة بحيث تكون وحدة عضوية فهناك دستور لايقبل شكا وهذا الدستور موجه للعاملين وهذا الدستور مكون من بنود ولكن كيف نجمع الناس حول هذه الدستور؟ بذكر الوازع الدينى وتنميته ثم تأتى الخاتمة لتكون نتيجة طبيعية لهذا المخطط الفنى الدقيق فما هذه النتيجة؟ هى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ...الخ) [1]، ويترك هذا الخيط الهادى الذى كان يمكن له أن يقوده إلى الجديد عما قيل قبله ثم يعود إلى موضوعات مطروقة مثل أثر القران فى الناس ،والتعبير الفنى عن هذه الفئات الثلاث ، ومالحق الذى يدعو إليه القرآن ؟ وكيف انتقل القرآن إلى الحديث عنه ؟ ، وطريقة القرأن فى الهداية، ونشأة الإنسان وماترتب عليها ، ودعوة بنى اسرائيل خاصة ، والتعبير الفنى عن هذه الدعوة وهكذا فى باقى الحديث عن السورة.

وأمر آخر نلحظه فى الطريقة التى تبناها السيد تقى الدين ، وهو الطريقة المدرسية التى تعامل بها مع النصوص ،فقد استغرق حديثه عن سورة البقرة جزءين من الكتاب ، يأتى بالنص ويضع له عنوانا ثم يتحدث عن مقدمة النص، ويذكر النص ويتحدث عن معانى المفردات والتراكيب ، ويذكر المعنى العام للنص، والتصوير الفنى ، والتنسيق الفنى، وهذا النظام تقريبا هو ماتصنعه المناهج الدراسية فى المدارس

---

(١) من الوجهة الأدبية . ج ١ ، ص ١٨٦.

حتى الثانوية العامة، وإذا كان سيد قطب قد صنع هذا من قبل فى الظلال فإنه سلك فيها طريقا معبرا عن رؤية انطلق منها وهى ماذكرها فى التصوير الفنى حين عزا إعجاز القرآن إلى براعة التصوير ، لكننا عندما نتأمل صنيع السيد تقى الدين لانجد هذا حتى فى العنوان الخاص بالتصوير الفنى لانجد إلا حديثا عاما يشبه حديث المعنى ونضرب لذلك مثلا بحديثه عن الآيتين السادسة والسابعة من سورة البقرة يقول :" ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة : تمثيل لحال قلوبهم فيما كانت عليه من التجافى عن الحق بحال قلوب ختم الله عليها حتى دخلوا فى زمرة الأنعام لاتعى شيئا ولاتفقه كقولهم سال به الوادى إذا هلك ، وطارت به العنقاء إذا أطال الغيبة، وليس للوادى ولا للعنقاء عمل فى هلاكه بحال من سال به الوادى"(١).

وإذا تأملنا حديثه السابق لانجد تصويرا فنيا بل حديثا عاما حتى المثال الذى ضربه وهو الأنعام فقد خانه التوفيق، فالأنعام لم يختم الله على قلوبها ولكنها اختارت أن تكون مسيرة بأمر الله، ولو تأمل آيات القرآن فى هذا الصدد لأدرك الحقيقة، لأنه ساعتها سيعلم أن الأنعام تدرك وتعى ولكنها رضيت بأن يكون زمامها بيد الله ،وربما خذله فهمه لقوله تعالى" لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أذان لايسمعون بها ولهم أعين لايبصرون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل" لأنه لو تأمل الاستدراك لفهم الآية على حقيقتها لأنه استدراك ينبه الأفهام إلى أن هذه الأنعام التى فى

---

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٣٠.

ظاهرها أمام الناس لاتفقه ولاتسمع ولاتبصر، إنما هى فىالحقيقة تتمتع بهذه المزايا وقد رضيت أن تستخدمها فى الطاعة لأمر ربها ، أما الآخرون فلهم هذه المزايا ولكنهم اختاروا وخالفوا اختيارهم فأصبحوا أضل .

فإذا انتقل إلى التنسيق الفنى تستغرقه بعض الملاحظات اللغوية مثل (إن الذين كفروا) التعريف فى الذين إما أن يراد به ناس معهودون بأعيانهم كأبى لهب وأبى جهل والوليد بن المغيرة وأضرابهم وإما أن يراد به الجنس " وكذلك فى سواء عليهم يقول :" معنى الاستواء فى الداخل عليهم الهمزة وأم استواؤها فى علم المستفهم لأنه قد علم أن أحد الأمرين كائن لكن لابعينه وكلاهما معلوم بعلم غير معين"[١]، ولانتبين نسقا فنيا كما أشار لأن معنى التنسيق أن يترتب أمر على أمر بحيث يتداعى الحديث تداعيا فنيا يوحى بالوحدة العضوية كما قال أو يبرز الإعجاز البيانى كما أشار اليه من تحدثوا فيه ، إنما نجد تلميحات لغوية غير مترابطة وغير مفهومة أحيانا.

وفى النهاية فإن هذا ماوقع بين يدى وأنا أبحث عنمن تحدثوا عن وحدة السورة عند لمحدثين فبعضها نابع لما قاله السابقون ،وبعضها فيه جدة لكنه غلف بطابع خطابى وغطى طغى على

(١) المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

المسائل التى أشاروا إليها وكان يمكن لها أن تقود إلى حديث مغاير أو متطور عما سبق، وبعضها مدرس كما رأينا عند حجازى وتقى الدين يمكن أن يقوم به مدرس عادى ممن يتبعون منهجا وضعته الوزارة وإن كان فيه بعض التوسع الناتج من النبرة الحماسية التى يقصد بها أصحابها بيان إيمانهم وحبهم للقرآن مع أن أحداً لم يشكك فى معتقدهم.

ثالثا : الوحدة فى ضوء الدراسات اللغوية الحديثة :

المحاولة الأولى :

لانذكر هنا إحصاء لما قدم فى هذا الإطار وإنما نتحدث عن جهدين بارزين قدما فى هذا المجال مفيدين من المناهج اللغوية الحديثة مثل الأسلوبية وعلم النص أو على الأدق علم اللغة النصى ، ونتناولهما بترتيب صدورهما ، وأولهما، كتاب أحمد أبوزيد وهو مغربى الذى كان فى الأصل رسالته للدكتوراه قدمها إلى كلية الأداب والعلوم الإنسانية بالرباط جامعة محمد الخامس – ثم طبعها فى كتاب بعنوان " التناسب البيانى فى القرآن دراسة فى النظم المعنوى والصوتى " وهى محاولة جاد من صاحبها للإفادة مما طرحه علماء الإعجاز القرآنى فى هذا الموضوع " التناسب المعنوى والصوتى" وكذلك الإفادة من المنهج الأسلوبى فى دراسة النصوص الأدبية .

وقد جاء الكتاب فى تمهيد وقسمين رئيسيين ؛ أما التمهيد فيتناول أهم الجهود التى بذلت فى مجال دراسة التناسب قديما وحديثا وبعضها كان يتحدث عن وحدة السورة، وتناول القسم الأول التناسب المعنوى فى النظم القرآنى ويشمل ثلاثة أبواب ؛ الأول فى تناسب المعانى المتوافقة والثانى فى تناسب المعانى المتقابلة ، والثالث فى التناسب ووحدة النسق، وفى كل باب فصول ، بينما يختص القسم الثانى ببحث التناسب اللفظى والإيقاعى ويأتى فى ثلاثة أبواب الباب الرابع فى قيمة التناسب الصوتى والايقاعى فى العربية والقرآن ، والباب الخامس فى التناسب

اللفظى، والباب السادس فى التناسب الصوتى والإيقاعى.

والحق أنى شعرت بما بذله الباحث من جهد بسبب كثرة الموضوعات التى طرقها ، ولأنه أقامها علىالقرآن كله ، وهو جهد يمكن أن يوزع على كثير من الباحثين، ولذلك جاء الناتج أشبه بما بذله علماء البلاغة والإعجاز القدماء حين جالوا فى موضوعات كثيرة، وقد خرجت مقولاته حديثة بمعنى أنها انطلقت مما قاله القدماء مع إضافة رؤيته الحديثة خاصة فى التنظيم والتبويب ، ويقر الباحث بما أشرت اليه حيث يقول " وأظهرت الدراسة الاستقرائية أيضا، أننا لانقدر على تقدير دراسة شاملة للتناسب المعنوى فى التعقيبات القرآنية كلها ؛ لأن ذلك سيخرج بنا من الدراسة الأسلوبية إلى عمل شبيه بالتفسير، وقد قدمنا الإشارة إلى سعة هذا الموضوع"[1].

وإذا كان هذا تعليقه على موضوع التعقيبات أى نهايات الآيات فما بالنا بالموضوعات الأخرى الأكثر اتساعا وانتشارا فى القرآن الكريم، ولكنه فى النهاية استطاع التوصل إلى نتائج عامة تندرج تحت إطار الإحصاء الأسلوبى يمكن أن ينطلق منها باحثون آخرون أو يفيدون منها فى بحوثهم حول الموضوعات القرآنية ففي موضوع التعقيبات يخلص إلى ثلاث نقاط عامة هى:

١- تقديم بيان عام عن أنواع التعقيبات القرآنية.

---

(١) أحمد أبوزيد : التناسب البيانى فى القرآن ، منشورات كلية الآداب بالرباط، المغرب، ١٩٩٢، ص ٩٨.

٢- عرض شامل لأنواع التعقيبات فى سورة واحدة .

٣- عرض مفصل للتناسب المعنوى فى التعقيب بالصفات الإلهية فى سورة واحدة.

ويخلص إلى أمر مهم وهو أن " تلك التعقيبات تجمع بين أداء وظيفتى التاسب المعنوى والتناسب الإيقاعى بصورة عجيبة تجميع بين الوفاء بحق المعنى وحق جمال العبارة معا "(١). ويطبق ذلك على سورة البقرة تطبيقا جيدا حيث يرى أن " معظم آيات هذه السورة تنتهى بتعقيب مناسب لمعنى الآية، ولوحدة الإيقاع وتناسب الفواصل"(٢)، وينطلق منه إلى حكم عام هو" أن التعقيب سمة من سمات النظم القرآنى يجمع بين الوفاء بحق التناسب المعنوى والوفاء بالتناسب الإيقاعى على السواء"(٣).

هذا فى الحقيقة ملمح مهم من ملامح وحدة السورة لأنه يمكن أن يعد وحدة نظام - كما يقول النقد البنيوى - تربط النص ببعضه مهما تعددت أغراضه وفصوله سواء عن طريق تناسبه المعنوى أو تناسقه الإيقاعى الذى يدعم التناسب المعنوى ، كما ألمح قدامة بن جعفر فى حديثه عن القافية وائتلافها مع المعنى فى كتابه نقد الشعر ويبدو هذا واضحا فى القرآن أكثر منه فى الشعر .

---

(١) المرجع السابق، ص ٩٩.

(٢) نفسه ، الصفحة نفسها .

(٣) نفسه ، ص ١٢٠ .

وبالرغم من أن أحمد أبوزيد لم يفرد وحدة السورة بفصل خاص يجمع فيه كل مظاهر التناسب المعنوى والايقاعى إلا أنه يتحدث عن هذا الموضوع كثيرا خاصة فى الفصل الذى قدمه بعنوان " التناسب المعنوى ووحدة السورة"، ويقدمه بآراء السابقين مثل الباقلانى والفخر الرازى ومصطفى صادق الرافعى ، ومحمد عبدالله دراز وسيد قطب، وألاحظ هنا أن النقول التى أوردها لاتحتوى على نص واحد يبرز وحدة السورة باستثناء رأى محمد عبدالله دراز ، إنما جاءت كلها تلميحات إلى التناسب بين الأيات والتناسق المعنوى فيما بينها وقد يكون عاما عن آى القرآن كله (١).

ثم يتحدث عن مظاهر وحدة السورة ويحددها فى :

١- التناسب بين مطلع السورة وموضوعها ، ويجعله فى أمرين :

أ - براعة الاستهلال .

ب - البراعة فى الاستهلال بالحروف المقطعة .

أما الأول فيذكر فيه أن مقدمة السورة تتضمن لفظة أو عبارة تتردد بعد ذلك فى السورة مما يمكن أن يعدها علامة دالة أو مؤشرا على الموضوعات التى تحتويها السورة ، ويركز على سورتى "ص" و" مريم" حيث وردت لفظة ذكر فى بداية كل منهما ، وتردد اللفظ بعد ذلك فى السورة مرات عدة ، ثم فى المظهر الثانى وهو

---

(١) المرجع السابق ، ص ٥٦-٥٩.

البراعة فى الاستهلال بالحروف المقطعة يميل إلى رأى ابن الزبير الغرناطى فى أن هذه الحروف هى الأكثر ترددا فى السورة ، والذى يتبناه باحث حديث هو بدرى عبدالجليل فى كتابه : " براعة الاستهلال فى فواتح القصائد والسور" وحاول فيه استقصاء معانى حروف " كهيعص" أول سورة مريم وربطها بموضوعات السورة ومعانيها .

وبالرغم من أنه رأى واحد من آراء كثيرة فى الحروف المقطعة أو الحروف المعجمية فى فواتح سور القرآن إلا أنه رأى له وجاهته وجديته حيث قام على محاولة استقصاء لغوية ودلالية قد تدعم من فرضيته لكنه لايمكن أن يكون عاما فقد تخالفه بعض السور كما أشار محمد عبدالله دراز وضرب مثلا لذلك بأول سورة العنكبوت .

ثم يذكر المظهر الثانى وهو تناسب مطلع السورة وختامها إما اتفاقا أو تقابلا ، ويبدأ بالتقابل ضاربا المثل ببداية سورة المؤمنون وخاتمتها من حيث قوله فى البداية " قد أفلح المؤمنون " وفى الآية قبل الأخيرة " إنه لايفلح الكافرون " وكذلك فى سورة القلم " ن والقلم ومايسطرون ماأنت بنعمة ربك بمجنون " وفى النهاية: " ويقولون إنه لمجنون ، وماهو إلا ذكر للعالمين " أما المتوافقة فضرب لها مثلا بسورة البقرة ، ثم يأتى المظهر الثالث وهو التناسب بين الحلقات القصصية وموضوع السورة " ويأتى فى سياق كل سورة من حلقاتها مايناسب موضوع السورة ومحورها وأهدافها، وهذا محور آخر من

مظاهر وحدة السورة وتناسب معانيها "[1] ويستشهد على علاقة وحدة السورة بأن القصة التى تذكر فى أكثر من سورة من القرآن الكريم، تأتى كل حلقة منها فى السورة التى ذكرتها بما يناسب موضوعها ويطبق ذلك على قصة إبراهيم فىالسور التى وردت فيها، وأن وحدة السورة وموضوعها هو الذى يفرض وجود هذه الحلقة من القصة فمثلا فى سورة البقرة يأتى حديث إبراهيم عن الإسلام وبنائه الكعبة ودعائه للقوم بأن يبعث فيهم رسولا منهم ، ثم تأتى محاجته للملك الظالم حول الألوهية وطلب اليقين من الله ثم عرضت سورة الأنعام مايناسبها من القصة وهو التوحيد ونفى الألوهية عن جميع المخلوقات .

وفى سورة هود يأتى تبشيره بإسحاق فى إطار قصة لوط ثم فى سورة ابراهيم يأتى دعاؤه عند البيت ثم يتكرر موضوع التبشير بإسحاق فى سورة الحجر ، وفى سورة مريم يأتى موقفه مع أبيه حول عبادةالله وعدم الطاعة للشيطان وهكذا فى باقى السور التى وردت فيها قصة إبراهيم لينتهى إلى مابدأ به وهو تناسب الحلقة من القصة لسياق السورة التى وردت فيها ، ويرى أنها قاعدة تعم جميع القصص القرآنى .

وحينما ينتقل إلى موضوع التقابل يذكر أن هناك سورا قامت على التقابل بين موقفين وأوضح مثل لها بعض السور التى تحدثت عن مشاهد القيامة ومقارنتها بين فريقين أهل الجنة وأهل النار وإن كانت سورةالرعد تتحدث عن التقابل فىالحياة بين المعانى والحركات

---

(١) المرجع السابق ، ص٦٧.

والاتجاهات والنماذج والصور وأبرزها مظاهر الطبيعة ، ليكون هذا التقابل مظهرا من مظاهر وحدة السورة وتناسب أياتها معنويا .

وفى إطار الحديث عن المناسبة فى وحدة النسق واختيار المفردات يتحدث عن "مراعاة روح السورة العام فىاختيار الألفاظ" ويذكر أمرا تحدث فيه كثيرون فى موضوع المتشابه من الألفاظ ،ولكنه هنا يربطه بموضوع المناسبة فمثلا فىسورة النازعات يذكر القيامة بالطامة وفى عبس التى تليها يذكر الصاخة، والطامة تناسب ماحدث من فرعون فى قوله" انا ربكم الأعلى " وهو طامة ، أما الصاخة فهى التى تصم الأذان وهى تناسب ماجاء فى سورة عبس حين أعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبدالله من أم مكتوم واستمع إلى من كان معه من وجهاء قريش(١)، وهذا الباب مهم كثيرا فى الحديث عن وحدة السورة .

وهكذا يمضى أحمد ابوزيد فى كل الموضوعات ، وبالتأكيد فإن الخط الرأسى الذى اتخذه لنفسه باستعراض كل موضوع فى القرآن كله جعله يتنقل بين الموضوعات تنقلا سريعا ويمسها مسا حتىوإن كان ذكيا ومصيبا للهدف، إلا أنه يبقى فى النهاية عاما . وكل موضوع منها يستحق بحثا منفردا ، وباستقصائه فىالقرآن الكريم كله يمكن أن ينتج مؤلفا ضخما ، إلا أننا لانستطيع أن ننكر على المؤلف حقه فى اختيار مايراه ، وهو حرصه على الإلمام بكل هذه الموضوعات التى طرقها

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٨- ١٧٩.

ومن خلال القرآن الكريم كله ، وكأنه كان يريد جمع مزايا القدماء والمحدثين ،وهو هدف مشروع لكنه فى النهاية يقع فىمحاذير أنه يمكن أن يرد فى موضع آخر من القرآن ماينافضه ، ويبدو أن الباحث كان ذكيا فى استناده إلى أن القرآن لايناقض بعضه بعضا، وهذا لايمنع من فقدانه لأمثلة كان يمكنه الاعتماد عليها وتوضح فكرته أكثر ، وهذا ماكان يحدث لو تتبع موضوعا واحدا فى القرآن أو فى قطاع منه، وهذا ماانتبه إليه صاحب المحاولة الثانية كما سنعرض لها فى الصفحات التالية.

المحاولة الثانية :

هذه المحاولة قام بها صبحى إبراهيم الفقى بعنوان " علم اللغة النصى بين النظرية والتطبيق : دراسة تطبيقية على السور المكية " فى جزءين يختص الجزء الأول بحديث نظرى شامل عن النص وعلم اللغة النصى ويخصص له الفصل الأول الذى يأتى فى أربعة مباحث الأول عن التعريف والمصطلحات والثانى عن أهميةالدراسة النصية والثالث عن طبيعتها والرابع عن موقف القدماء من التحليل النص ويخصص الفصل الثانى لبحث موضوع التماسك النصى ويأتى أيضا فى أربعة مباحث الأول يبين فيه مفهوم التماسك النصى وأهميته والثانى عن التماسك والسياق والمتلقى والثالث أدواته والرابع نظرة القدماء إلى التماسك ، أما الفصل الثالث فيكرسه لدراسة الضمائر بوصفها وسيلة للتماسك النصى وفيه يدرس دور الضمير وأهميته عند علماء العربية ثم علماء النصية ثم يحلل السور المكية تحليلا نصيا من خلال الضمائر ، ويتناول الفصل الرابع التوابع وأهميتها عند القدماء والنصيين ثم يحلل السور المكية نصيا من خلال التوابع المتمثلة فى العطف والتوكيد والبدل والوصف ، وإن كان يذكر تركيز النصين على العطف باعتباره أبرز وسائل التماسك النصى إلا أنه فى التطبيق يتناول التوابع كلها .

اما الجزء الثانى فيشتمل علىالفصول الثلاثة الخامس والسادس والسابع ويتناول الفصل الخامس ظاهرةالتكرار ومعناه اللغوى والاصطلاحى وأنواعه وأغرضه ووظيفته ثم يأتى التحليل النصى

للسور المكية من خلال ظاهرة التكرار ، بينما يدرس الفصل السادس المناسبة، ولكثرة الحديث فيها سواء من القدماء أو المحدثين يستغرق هذا الفصل المساحة الأكبر من الكتاب ويعيد فيه دراسة موضوعات سبقت دراستها عند من سبقه ويختتم الكتاب بالفصل السابع الذى يخصصه للحذف مثل مفهومه وأنواعه وعلاقته بالإبدال والمرجعية وضرورة الدليل وعلاقته بالتماسك ، ومهمة المتلقى فى استشراف هذا التماسك وكيفية حدوث التماسك من خلال الحذف ثم ينتهى بالتحليل النصى لنماذج من السور المكية من خلال ظاهرة الحذف .

والكتاب فى الواقع بحث علمى يجمع بين القديم والجديد ، ومحاولة جادة للإفادة من علم النص الحديث وتطبيقه على النص القرآنى ، وقد وجد الباحث أن السور المكية يمكن أن تحقق هدفه من حيث " وحدة موضوعها حيث الحديث عن قضية العقيدة ومتطلباتها وأيضا لوحدة مكان نزولها وزمانه ، والمكان والزمان من عناصر السياق المحيط بالنص"(١).

ويبدو أن الباحث اعتمد على بعض البديهيات أو المسلمات التى لايقرها واقع النزول فإذا كانت معظم السور المكية قد تحدثت عن موضوع العقيدة فإنها لم تخل أبدا من بعض الأحكام ، ولوقرأ البرهان والإتقان لما أطلق هذا الحكم لأنه نسبى ففى آيات القرآن المكى بعض

---

(١) صبحى ابراهيم الفقى : علم اللغة النصى بين النظرية والتطبيق ، ط ١، دار قباء بالقاهرة، ٢٠٠٠ ، ج ١ ، ص ١٣.

الأحكام وخاصة فى سورتى الأنعام والأعراف فمثلا فى قوله تعالى فى سورة الأنعام (ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ...الخ) حكم، وفيها أيضا (كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولاتسرفوا إنه لايحب المسرفين) ففيها إشارة إلى موعد الزكاة ، وفى قوله تعالى: (قل لاأجد فيما أوحى إلى محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن ربك غفور رحيم) ويؤكد القرطبى أنها مكية، وإذا احتج أحد بأنه يمكن أن تكون من الآيات التى نزلت بمكةبعد الهجرة فهذا يرد عليه بالقول الأكثر شيوعا من أن سورة الأنعام مكية ونزلت جملة واحدة" وشيعها سبعون الف ملك "(١). وكذلك الآيتان: (قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا، ولاتقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولاتقربوا الفواحش ماظهر منها ومابطن ولاتقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولاتقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لانكلف نفسا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون) (١٥١، ١٥٢ الأنعام).

---

(١) راجع فى ذلك الإتقان للسيوطى ، ط الحلبى ، ج ١ ، ص ٣٧ ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، ط دار الغد العربى ، ١٩٨٩ ، مج ٣ ، ص ٢٤٦.

وحتى لو احتج بأن بعض آيات السور المكية نزلت بالمدينة فإن هذا لم يتضح فى آيات الأحكام فى هذه السورة، أو إذا احتج بأن بعض آيات السور المكية نزلت فى مكة بعد الهجرة فإن هذا ينقض الحكم العام الذى أطلقه بأنها تتمتع بوحدة الزمان بجانب المكان ، وربما كان حكمه العام هذا أراد به أن يهيئ لجو السورة الذى يجعله المرجعية والفضاء الخارجى للنص وليس اعتمادا على تدقيق فى المعلومات حول النص القرآنى العظيم وربما لو كان توقف على وحدة أسلوبها ، وماهو معروف عنها من غلبة الحديث عن موضوع العقيدة لكان أفضل وأدق علميا ، حيث تتضح فيها سمات أسلوبية محددة مثل الجمل القصيرة والتقسيم الموسيقى أو بعض الخصائص اللفظية وهو ماسيتبعه عند التطبيق لعلم اللغة النصى على هذه السور .

ولكن هذا لايقلل من الجهد العلمى المبذول فى هذا الكتاب ، بالرغم من أن هذه العموميات كان لها تأثيرها فى التناول، فبالرغم من أنه حلل سورة الأنعام التى أشرت إليها آنفا من خلال الضمير وعند الحديث عن توجيه الخطاب من الله الىنبيه محمد صلى الله عليه وسلم من خلال فعل الأمر " قل" تجاوز عن الآيتين اللتين تضمنتا أحكام " قل لا أجد" و " قل تعالوا أتل ماحرم ربكم عليكم " من غير سبب واضح ولايبين إن كان أدخلها فى الإحصاء أم لا؟ وربما كان ذلك بوحى من تركيزه على فكرة العقيدة والحوار مع المشركين ، ثم كان لهذا المنطلق أثره أيضا فى اختيار السور التى طبق عليها فكرة الضمير ، ولا أدرى

هل رأى أن الضمير ليس فاعلا فيها أو رابطا أم لا؟ لأنه انتقل بعد سورة الأنعام إلى سورة الكهف مباشرة مع أن بينهما عددا كبيرا من السور المكية، ولابد أنها تشتمل على ضمائر سواء كانت متفقة أو مختلفة، وأبرز مثال عليه سورة الأعراف وسورة هود وبينهما وشائج من حيث ذكرهما لقصص الأنبياء ن والإحالة على الضمير فيهما سواء إلى الله سبحانه وتعالى أو إلى نبيه عليه الصلاة والسلام قوية جدا.

ولاشك أن حرص الباحث على تجريب كل أدوات التماسك النصى ، وحرصه على تطبيقها على السور المكية وهى تمثل قطاعا كبيرا من القرآن، ربما كان سببا فى حدوث مثل هذا ؛ لأن الموضوع بهذه الصورة متسع اتساعا كبيرا، ويصعب فيه الحصر الدقيق لكل جزئياته ، والبحوث الحديثه التى تعتمد على الإحصاء والاستقصاء تركز على نص بعينه تحلله بكل أدواتها فتخرج النتائج دقيقة إلى حد بعيد ولعله يذكر نفسه أن كتاب هاليدى ورقية حسن (Cohesion in English) قام كله على خمس أدوات هى المرجعية. الابدال ، الحذف، العطف ، التماسك المعجمى [1]، ومع هذافإن هذا الجهد مفيد فى هذا البحث بل وفى غيره من البحوث التىستنطلق من القرآن لتجرب العلوم الحديثة لاستبصار إعجاز النص القرآنى بجانب ماقدمه البلاغيون القدماء، ولاغرو فهو كتاب الله الذى لايأتيه الباطل

(١) المرجع السابق : ج١ ، ص ٢٥٧.

من بين يديه ولامن خلفه ولايخلق من كثرةالرد كما قال عنه الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويبدو أن حدسى كان صحيحا فقد لاحظت أن الباحث يرجع إلى سور بعينها من المكى وليس القرآن المكى كله فعندما تحدث عن الضمائر باعتباره وسيلة من وسائل التماسك النصى ذكر الفاتحة والأنعام، والكهف ، والقصص ، والملك،ونوح ، والجن والمزمل ، وبعض السور القصار وليس كلها ،وهكذا فعل فى التوابع والبدل وفى التكرار ومن ثم فإن العنوان غير دال ولو أضيفت إليه كلمة " بعض" أو " عدد من " السور المكية لكان أفضل، وربما اعتمد على التنوع الذى أحدثه فصل التناسب، والذى خرج فيه عن الإطارالذى طبق عليه فى باقى الفصول، وأغلب الظن أن كثرة الحديث فى كتب السابقين من القدماء والمحدثين عن التناسب هو الذى قاد إلى هذا ، وبعض ماجاء عنده ورد أيضا عندأحمد أبوزيد مع أنه لم يشر إليه مطلقا لافى الهوامش ولافى المراجع، وربما كان اعتماد الاثنين على منطلقات سابقة هو السبب فىهذا التوارد مع احتمال أنه لم يطلع على جهد أبى زيد.

ومن ثم نتج عن هذا تكرار الكلام على الآيات فى السور التى تم التطبيق عليها فمثلا فى سورة المزمل يقول عند الحديث عن الضمير " ولم يجر ذكر صريح للنبى صلى الله عليه وسلم فى النص ومن ثم فمرجعية هذه الضمائر كلها خارجية ، ولكن السياق أوضح إلى من

تعود الضمائر"[١]. وعند الحديث عن التكرار فى الجزء الثانى وتطبيقه على سورة المزمل يقول :" وكذا تكرر اسم الرسول بذكر صفة من صفاته من الآية الأولى ثم أتت الضمائر التى تحيل إليه ، ولم يذكر لفظ الرسول إلا مرة واحدة فى الآية ١٥" [٢].

ثم نتج عنه أمر يشتت ذهن القارئ من حيث توجيه الآيات فى السورة حسب أداة التماسك النصى بما يشبه التناقض أحيانا ، وقد وضح من المثال السابق ويتضح أكثر فى حديثه عن سورة الضحى فمرة يوجهها من ناحية الضمير العائد على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومرة ثانية فى التكرار يوجهها من ناحية تكرار اسم الله تعالى.

والمشكلة لاتكمن فى هذا فكل مرة مناسبة للموضوع المطروق، ولكن المشكلة تكمن فى التعميم حيث يقول عند الحديث عنها فى موضوع الضمائر" ولهذا وجدنا آيات السورة كلها بعد آيتي القسم تتوجه إلى الحبيب المصطفى صلى الله عليه سلم كالتالى ... " بعدد آيات السورة ثم يقول فهذه سبعة عشر ضميرا موزعة على تسع آيات ترجع كلها إلى الرسول عليه السلام"[٣]. وعندما يتحدث عنها فى موضوع التكرار يقول : " أما التكرار فى سورة " الضحى"، ، فقد تكرر فيها اسم الله تعالى فى عشرة مواضع ، منها ثلاثة ظاهرة، وسبعة مضمرة

---

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٥.

(٢) نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٣.

(٣) المرجع السابق ، ج ١ ، ص٢٢٧.

وعلى الرغم من قصر السورة ، فإن هذا التكرار قد أسهم فى تحقيق تماسك آياتها فيما بينها "[1] ، وهكذا فى معظم السور التى تناولها نتبين إلى أى مدى بذل الباحث جهده لضبط أدواته ومع هذا لم يسلم هذا الجهد من بعض المشاكل مع القارئ.

وعلى سبيل المثال أن بعض النقاط كان موضعها غير موفقا فمثلا فى حديثه عن سورة الكهف لم يتحدث فى الجزء الأول عند حديثه عن الضمائر وهو أول موضوع يطرقه لم يذكر تقسيم السورة إلى وحداتها الدلالية بل تحدث عن الموضوعات والقصص ثم عند التكرار يوضح أن السورة" يمكن تقسيمها إلى عشر وحدات دلالية" ومن الطبيعى أن مكانه الأفضل فى أول موضوع حيث يمكن الإحالة عليه ، وخاصة أن الحديث يجرى أيضا فى إطار الربط الدلالى .

وأحيانا ينتج تعسف فى التأويل فمثلا فى الوحدة الدلالية السادسة " السجود لآدم" جعلها قصة كباقى القصص التى ذكرتها السورة مع أنها آية واحدة تشير إلى الموضوع وكان من نتيجة ذلك أن جعل التعقيب يؤكد جزاء المجرمين مع أنه تجاوزها عند تطبيق موضوع الضمير باعتباره رابطا دلاليا ، ولأنه انطلق فى البداية من توجيه السورة نحو فكرة المقابلة أو الصراع بين الخير والشر وانتصار الخير ، وهو أمر غريب لأن محور السورة الأصلى وفى رأيى على الأقل يدور حول علم الله الذى يتسع لما يعرفه البشر ومالايعرفونه،وقد ألمح هو نفسه

---

(١) نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٦.

إلى هذا فى تعقيبه على القصص بقوله " وهذه القصص جميعها من الأمور الغيبية ، ولايعلمها إلا الله ومن ثم كان تكرار ذكره أمرا مؤكدا للتذكير الدائم على أن المخبر هو الله ولذا لامكان للشك فيها"[١].

والمتأمل لبداية السورة ومجريات القصص فيها يجد أنها فى حقيقتها تركز على بيان علم الله ونفى العلم الغيبى عن أحد حتى ولو كان نبيا، وهذا ماتبينه الآيات الأولى من سورة الكهف "مالهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا " ثم حينما سألوه عن قصة أهل الكهف ورد عليهم بأنه سيخبرهم غدا وحبس الله عنه العلم حتى لايظن ظان أن محمدا عالم بكل الأمور وبالتالى سيقص عليهم، ثم قال له (ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا) والقصة كلها توحى بأن أحدا لايعلم حقيقة أهل الكهف إلا الله (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم ويقولون سبعة وثمانهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل)، وهكذا تدور قصص السورة كلها، قصة الرجلين وقصة موسى والرجل الصالح وقصة ذى القرنين ، وفى نهاية السورة يجمع كل ذلك فى إطار علم الله الغيبى الذى أخبر به فى القرآن الكريم وليس من عند محمد " قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولايشرك بعبادة ربه أحدا ".

---

(١) المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ٤٥.

ونرى أيضا تجاوزه أحيانا عن أمثلة أوضح فمثلا عند بيانه للتماسك النصى بين اسم السورة والسورة عبر الآية الأولى لايتحدث عن سورة الملك بالرغم من أنه ذكرها فى الفقرة التى عدد فيها السورة التى تندرج تحت العنوان مع أنه ذكر سورة الإسراء ، لتكرار ذكر الموضوع فى النصف الثانى من السورة حينما طلبوا معجزة من الرسول صلىالله عليه وسلم فذكر لهم الإسراء ولم يصدقوه ، مع أن السورة تتضمن موضوعات أخرى مثل النهى عن بعض الأخلاقيات والتوصية بالوالدين، ومحاوراتهم الدائمة مع الرسول صلى الله عليه وسلم بالإضافة إلى حديثها فى البداية عن بنى اسرائيل ،أما سورة الملك فكل آياتها تعود إلى الذى بيده الملك وحتى نهايتها التى تتمثل فى التساؤل " قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين " وإجابته فى البداية" تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير مما يوحى بدوران معانيها كلها حول الافتتاح الذى افتتحت به السورة.

وهكذا فإن اتساع المساحة وتعدد الموضوعات أديا إلى هذا ، وبالطبع فنحن لانقيم جهد الباحث وإنما نقر بأن ماذكره ودرسه سيفيدنا كثيرا فى موضوعنا حيث يبرز أمامنا نقاطا تفيد بدرجة كبيرة فى بيان وحدة السورة بالإضافة إلى ماذكر فى موضوع تحليل الخطاب وبلاغته، وكثير من الموضوعات التى طرقها وبالوسائل التى أدى بها كان على درجة من الوعى البحثى كبير ، ولاتنقص هذه الملاحظات من مجهوده الذى بذله وأرجو بل وأتمنى أن أركز فى هذا البحث

علىالموضوع وألا تأخذنى الحماسة التى تنتاب من يتصدى لمثل هذا الموضوع، والحماس ينتج من عاطفة إيمانية أحيانا تجاه القرآن ، ومن الرغبة فى الإفادة من علم النص باعتبار التوافق بينه وبين القرآن أكثر من غيره من النصوص، إذ إنه بالرغم من جلال القرآن وهيبته فإن الثقة فيه والإيمان الراسخ بمنزله وهو الله سبحانه وتعالى تجعل قدم الباحث راسخة أكثر من الإبداع البشرى الدى ليس للمتلقى أو القارىء علم بهدف صاحبه أو حالته لحظة إبداعه نصه ، هذا بالإضافة إلى الإسهامات الكثيرة من المفسرين او العلماء المجتهدين فى فهم النص القرآنى العظيم ، مع أنها يمكن أن تكون عقبه بحثية من حيث تباينها نتيجة انطلاقها من منطلقات متباينة فى المنزع والمذهب لكنها على أية حال تمثل إضاءة أمام الباحث ، وهذا ماتجلى فى بحوث السابقين وخاصة البحثين الأخيرين اللذين أشرت إليهما . مما دفع بصاحبيهما إلى التوسع فى مجال التطبيق على قطاع عريض من القرآن سواء عنه كله أو المكى منه .

القسم الثاني

التطبيق

النموذج الأول: سورة الحاقة وتكامل البنى

النموذج الثاني : سورة المجادلة ودوران النص حول محور

تقديـــــــــم:

بعد العرض السابق نستطيع أن نقول إن كل سورة من القرآن الكريم تعد وحدة واحدة متكاملة وهى ليست وحدة منعزلة عن باقى السور بل تشكل وحدة متكاملة أيضا مع القران الكريم كله،ولاغرابة فى ذلك فكله قرآن وبعضه قرآن، اذ إن الاسم العلم :" القرآن" يطلق على الكل ويطلق على البعض وقد فصل القدماء والمحدثون هذا الأمر ، كما أن دلالة اسم السورة يوحى بهذه الوحدة . ويضاف إلى ذلك أن تحديد السور كان توقيفيا من الله ولا دخل للبشر فيه ، لأنه من الثابت أن جبريل كان ينزل بالآيات ويحدد موضعها من السورة التى تضمها بأمر الله ، ثم كان يتنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى كل رمضان يراجع معه القرآن ، ولما كانت السنة الأخيرة من حياة النبى اعتكف فى المسجد طيلة شهر رمضان كله . ونزل جبريل وعرض الرسول عليه القرآن مرتين ، وشهد هذه العرضة زيد بن ثابت مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن اجـــل ذلك اختـــاره الخليفتان أبوبكر وعمر لجمع القران حينما قررا جمعه وتدوينه، واستعان به عثمان بن عفتن حينما قرر نسخ المصحـــف ليوزعه على الأمصـــار.

ومادام كل ذلك صادرا عن الله الواحد الاحد فإن كلامه لابد أن يتسم بالوحدة مهما تنوعت المظاهر والاغراض . فالله الواحد لايقول كلاما إلا واحدا . ومايبدل القول لديه . ومن هذ انطلق المتحدثون فى

الإعجاز القرآنى وأفادوا كثيرا من علوم عصرهم وكانت فى أغلبها علوم عربية تهتم باللغة العربية نحوا وبلاغة فأبرزوا أوجه الإعجاز البلاغى للقرآن وقد سار على دربهم كثير من المحدثين ،وإن كانت هذه القضايا البلاغية قد شغلتهم عن الحديث فى وحدة السورة القرآنية إلا ماكان يتصل بهذه الأوجه البلاغية من فصاحة التعبير والتناسب بين الآيات والسور ، وأحيانا القصص القرآنى وتوزعه بين السور ومناسباته ، ولعل شيئا من التخوف قد منعهم من الحديث الكامل فىهذا الأمر نظرا لوجود سور تتنوع موضوعاتها ، وتحرجا من التأويل مع أنهم فى حديثهم عن المناسبة أشاروا إلى مناسبة كل موضوع لما قبله أو لما تتضمنه السورة من قضايا واحكام .

وسأولى الإفادة أيضا من الجهود الحديثة فى بيان وحدة السورة القرآنية سواء من جهود علماء البلاغة المحدثين حول تحليل الخطاب مفيدين فيه جهود البنيويين والأسلوبيين أو علماء النص فى أطروحاتهم حول النصوص الأدبية خاصة بعدما صار التركيز على المتلقى باعتباره فاعلا فى النص دون التركيز على قائله وفرض ظروف إبداعه للنص على القراءة وما أظن ذلك إلا بوحى من النصوص الدينية ليس لغياب مؤلفها ولكن لجلال منزلها وربما كانت هى المرشد لهم إلى هذه الأفكار التى صارت نظريات فيما بعد، خاصة أنها أصبحت ملكا للجميع يقرؤها ويفهمها ، كل حسب ظروفه الاجتماعية والثقافية ولذلك تعددت لها التأويلات من منظورات مختلفة.

وأيا ماكان الأمر فإن مناهج تحليل النص من بنيوية إلى أسلوبية، وتفكيك ، وسيميولوجية ، إلى الشعرية وأخيرا النصية تفيد كثيرا فى بيان وحدة السورة سواء لتكامل البنى فيها، أو إلى تناسق وتماسك أسلوبها أو إلى الدلالات التى تشير إليها وبالتالى اعتبار الألفاظ علامات لمضامين وراءها ومن ثم تتسم بالشعرية التى تكون هذا النص من كل هذه الأدوات التى تبرز تماسكه وتجعله وحدة واحدة .

وسأقصر بحثى فى هذا الأمر على نموذجين أحدهما سورة مكية وهى سورة الحاقة لوحدة موضوعها وهو يوم القيامة، وقد نزلت بعد عدة سور مكية تناولت الموضوع نفسه ، ولايعنى هذا عدم توافر العوامل التى تمثل وحدتها فى باقى السور بل كلها تتمتع بهذه السمة، ولكن لاستغراقى فى تأمل ودراسة هذه السورة، وقد يصاحب ذلك – إن شاء الله جهد آخر فى سور أخرى، وهى بداية لا أكثر ، أما النموذج الآخر فهو سورة مدنية وقد اخترتها قصيرة أيضا لتكون متعادلة مع سورة الحاقة فى الحجم وإن كانت – بالرغم من قصرها – تتضمن عدة موضوعات لكنها تتمتع أيضا بسمة الوحدة الواحدة ، وبالتالى أكون قد شملت الجانبين المكى والمدنى من القرآن فى صورة هذين النموذجين .

وأضيف إلى ذلك أمرا سيأتى ذكره فى الحديث المفصل

وهو أن سورة الحاقة تضمنت فـى آياتهـا إشـارات الىسـور أخـرى نزلت قبلها وسبقتها فى الحديث عن يوم القيامة أو قصص السابقين، كما أنها تتضمن أيضا إشارات إلى بعض السور التى نزلـت بعدهـا وتحدثت عن يوم القيامة أيضا ، ومن ثم يمكـن أن تعد رابطـة بيـن ماسبقها وماتلاها، ولذلك كان اختيارى لها مبررا وإن كـان ذلـــك لايعنى القطع بهذه النتيجـــة.

النموذج الأول

سورة الحاقة وتكامل البنى

النموذج الأول

سورة الحاقة وتكامل البنى

لايختلف أحد من المفسرين أو الباحثين فى علوم القرآن علىأنها ملكية بكامل آياتها ولاتوجد بينها آيات مدنية، وأنها نزلت فى السنوات الأخيرة من الفترة المكية فى عمر البعثة النبوية، وهى تتحدث عن يوم القيامة حتى وإن تناولت حديثا عن الأمم السابقة فإنه متعلق (أى الحديث) بتكذيبهم ليوم القيامة، وكل مظاهر التعبير والتصوير توحى بهذا المعنى .

أولا: مظاهر التعبير الموحية بوحدة السورة(البنية التعبيرية أو اللغوية) :

١- اسم السورة ومطلعها ودلالته على مضمونها :

تحدث كثير من العلماء عن ارتباط اسم السورة وتناسبه لمضمونها وإن كان بعضهم قد أشار إلى سورة الحاقة ولم يذكره البعض الآخر[1]، واسم السورة هنا هو الحاقة أى التى تحق فيها الأمور

---

(١) راجع فىذلك ماذكر فى القسم الأول من هذا الكتاب خاصة ماقاله أحمد أبوزيد فى التناسب المعنوى ، ص ٥٩ ، وقد أشار فيه إلى من قالوا بذلك ، وصبحى الفقى فى علم اللغة النص ، ج ٢ ، ص ١٧٣، و ص ١٢٠، وماذكره محمد بدرى عبدالجليل فى براعة الاستهلال فى القصائد والسور من ص ١٧٧ إلى ص ٢٥٠.

كما يذكر الطبرى[1] ومعظم المفسرين ، ويضيف القرطبى إلى ذلك أنها سميت بهذا الاسم " لأنها تكون من غير شك ، وقيل سميت بذلك لأنها أحقت لأقوام الجنة وأحقت لأقوام النار ، وقيل سميت بذلك لأن فيها يصير كل انسان حقيقا بجزاء عمله "[2]، ويكمل الرازى فى تفسيره الكبير الدلالات فيقول " وعلى هذا (الحاقة) بمعنى الحق "[3]، وهذا المعنى مهم لارتباطه بالخاتمة كما سنرى ، وهكذا فكل المعانى تدور حول الحق ، والقيامة حق والساعة حق والقرآن الذى أخبر عنها حق والنبى صلى الله عليه وسلم الذى بلغ القرآن حق وهكذا.

ولذلك جاء مطلع السورة بنفس الاسم ، ومكررا ثلاث مرات فى ثلاث صيغ كل منها له دلالته على هذه الصورة (الحاقة * ما الحاقة* ومأادراك ماالحاقة) ولم يكن هذا التكرار عفويا؛ لأن هذا كلام الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ومن ثم فإن التكرار هنا له هدفه ، وقد تنبه الزركشى فى البرهان إلى موضوع التكرار وإن كان حديثه عاما من جهة فائدته البلاغية، وقد وضح معناه فقال " هو الترديد والإعادة" وهو يؤدى إلى تعلق الكلام بعضه ببعض، ويراه سعيد بحيرى " إحالة بالعودة ويتمثل فى تكرار لفظ أو عدد من الألفاظ

---

(١) الطبرى: جامع البيان فى تأويل آى القرآن ، ط دار الفكر العربى ، ١٩٨٨ ، ص ٢٩ ، ص ٤٧.

(٢) القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ، مجلد ١٠ ، ص ٦٩٨٤.

(٣) فخر الدين الرازى: مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ، ط دار الغد العربى ، ١٩٩٣ ، مجلد ١٥ ، ص ٦٨٢.

فى بداية كل جملة من جمل النص قصد التأكيد.. والإحالة بالعودة أكثر أنواع الإحالة دورانا فى الكلام " ويوافقه صبحى الفقى على هذا فى علم اللغة النص ويتكئ عليه فى دراسة ظاهرة التكرار وإن كان يوسع من دائرته ليشمل التكرار فى وسط الجملة وآخرها وليس فى بدايتها فقط"(١).

وقد ركز المفسرين على الناحية الإعرابية فى ورود الاسم مفردا ثم مقرونا بما قبله فى الآية الثانية ثم مسبوقا بالتساؤل وماأدراك؟ باستثناء الألوسى صاحب روح المعانى الذى يتحدث عن دلالة الآية الثالثة المسبوقة بالتساؤل " وما أدراك ؟) على معنى " أن أعظم شأنها ومدى هولها وشدتها بحيث لايكاد تبلغه درايةأحد ولاوهمه"(٢).

ولم نجد واحد منهم يتحدث عن أسباب التكرار ثلاث مرات ، وهو واقع ، وله دلالته بجانب فوائد التكزار المذكورة ، لكنه فى إطار بنية النص يعد دالا ، فالسورة جاءت فى ثلاثة أقسام ؛ الأول منها يتحدث عن التاريخ الماضى وقصص الأمم السابقة وتكذيبهم باليوم الآخر ، والثانى منها يتحدث عن يوم القيامة ومايحدث فيها ، والثالث عن القرآن الكريم الذى أخبر بالاثنين معا.

---

(١) صبحى الفقى : علم اللغة النصى، ج ٢ ، ص ١٩- ٢٠.

(٢) الألوسى : روح المعانى ، ط دار إحياء التراث بالقاهرة، المجلد الأخير، ج ٢٩، ص ٤٨.

وقد جاء التعبير بصيغه هذه مناسبا لكل قسم، ففى. الآيـة الأولـى جاء التعبيرب " الحاقة" خاليا من أى أداة أو إضافة لأن التاريخ المـاضى المتمثل فى حديثه عن الأقوام السابقين معروف لديهم مهما أنكروا ، وقد جاءهم العذاب الدنيوى أى فى الدنيا باعتبـاره رمـزا لعذاب الدنيـا وفـى الوقت نفسه معبرا عن قدرة الله التـى تحكم الدنيـا والآخـرة ثـم جـاءت الصيغة الثانية ما الحاقة ؟أى مسبوقة بمـا الاسـتفهامية (كمـا تؤكـد ذلـك آراء المفسرين) ، وإن كان توجيههم لها يفيد أن الاستفهام هنـا بلاغـى مقصوده تعظيم شأنها أو تهويل أمرها ، ولكنى أضيف هنا أن الاسـتفهام هنا معبر عن القسم الثانى الذى يعد غيبا، والجاهليون الذين نـزل عليهـم القرآن فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ينكرون هذا اليوم كما أنكـره السابقون الذين حلت عليهم العقوبة ونزل بهم عذاب الله سبحانه وتعـالى فى الدنيا ، فهو يوازيه فى التعبير عن مكنون نفوسهم بالرغم مـن كـثرة السور التى سبقت وأخبرتهم بهذا اليـوم وأهوالـه ، ولذلـك فإنـه إذا كـان عند المؤمنين يفيد الإقرار فى نفوسهم بهيبة هذا اليـوم وعظمتـه وهولـه كما يعبر المفسرون ،فإنه يعبر عن الإنكار الناتج عن الجهل من جـانب المشركين وهذا مايؤكده القسم الثالث .

وتأتى الصيغة الثالثة (وما أدراك ما الحاقة) التى يـرى فيهـا كثير من المفسرين تأكيدا لمعنى الصيغة الثانيـة ، أى تـأكيد لهـول يـوم

القيامة، إلا أن فيها معنى آخر ألمح إليه الزمخشرى وكرره القرطبى والألوسى وهى نفى العلم بها عند الرسول صلى الله عليه وسلم(١).

وإذا تم نفى العلم عن الرسول صلى الله عليه وسلم يصبح الكلام الذى يقوله مؤكدا لا شبهة فيه حتى وإن كان ممن عرفوا بالصدق، إذن يجمع التعبير بهذه الصيغة بين الدلالتين التهويل والتعظيم وفى داخله نفى علمها عند الرسول وهو ماصدقه الحديث الذى جاء فيه جبريل عليه السلام إلى الرسول وأصحابه وسأله عن الساعة، قال ما المسئول عنها بأعلم بها من السائل قال صدقت ، ومعظم آيات القرآن تنفى علم الرسول صلى الله عليه وسلم بالساعة، وحتى لو كان علمه فى حدود مابلغه من القرآن ، فإن التعبير فى حالة نفى العلم يفيد التعظيم.

وقد تجلت دلالات الصيغ الثلاثة فى الأقسام الثلاث تعبيريا، فالحاقة وهى الصيغة الأولى المنبهة إلى صورتها وحقيقتها تبدو آثارها على صيغ التعبير فى القسم الأول حيث وردت الصيغ التالية (القارعة، الطاغية، عاتية ، رابية، واعية) وفيها أسماء للقيامة ودلالات على هول حدوثها حتى وإن كانت هذه المظاهر قد حدثت بالفعل فإن حدوثها يكون تأكيدا لحدوثها مستقبلا بهذه الأوصاف ايضا . وفى القسم الثانى

---

(١) راجع القرطبى ، مج ١٠ ، ص ٦٩٨٥ . والكشاف للزمخشرى ، ط ٢ ، الأميرية ببولاق مصر ١٣١٩ هـ ج٣ ، ص ٢١٢ . وروح المعانى للألوسى ، ج ٢٩ ، ص ٤٠.

الخاص بوصف حدوث القيامة والبعث والحساب والجزاء نجد الاجابة على السؤال، فإذا كنت أيها السائل تسأل ماالحاقة؟ فإننا نجيبك بأنه "فإذا نفخ فى الصور نفخة واحدة" (آية ١٣) .

وأكثر المفسرين على أن النفخ يكون مرتين ، مرة للصعق ومرة للقيام، ولكنهم يكادون يجمعون على أن هذه النفخة هى الأولى للصعق ، وإن كان الرازى يضيف إلى هذا " جعل اليوم اسما للحين الواسع الذى تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب فلذلك قال (يومئذ تعرضون)" [(١)].

وهذا تعبير عن الإيقاع السريع الذى تحدث فيه ظواهر يوم القيامة ، ومن ثم جاء بعدها (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة، فيومئذ وقعت الواقعة ، وانشقت السماء فهى يومئذ واهية، والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية)(الآيات من ١٤-١٨).

ولنتأمل الآية الأخيرة • يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية) فدلالتها كلها توحى بالحق والحقيقة يقول الرازى : "المراد لايخفى يوم القيامة ماكان مخفيا منكم فى الدنيا، فإنه تظهر أحوال المؤمنين فيتكامل بذلك سرورهم ، وتظهر أحوال أهل العذاب فيظهر بذلك حزنهم وفضيحتهم"[(٢)]، وهذا كله مايؤديه معنى الحاقة التى سألوا عن حقيقتها

---

(١) فخر الدين الرازى : مفاتيح الغيب ، مج ١٥، ص ٦٩٢.

(٢) المرجع السابق : ص٦٩٦.

وفيها معناها ، ثم نراه يوجز العرضات الثلاث فى الفعل المضارع تعرضون ، وهنا يرتبط التعبير الثلاثى بالمقصود من كلمة" تعرضون " لأن معظم المفسرين والفقهاء يقرون بأن العرضات ثلاث ، الأولى للمعاذير والثانية للخصومات والثالثة تطير الصحف فى الأيدى (١).

وفى هذه العرضات الثلاث تظهر الحقيقة وينكشف المستور الذى ستره الله فى الدنيا ولكن يوم القيامة لايكون ستر بل رحمة عند قبول التوبة أو العذاب إن كان من أهله ولذلك أعد هذه الآية رابطة لهذا القسم بالعنوان والمطلع على السواء ، ومن مظاهر هذه الحقيقة الكتاب المسجل فيه أعمال الناس والدال إلى نهايتهم فيفرح من أوتى كتابه بيمينه ويباهى به الناس ويعرضه عليهم " هاؤم اقرأوا كتابيه " وبالرغم من أن السورة تقول على لسانه (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) فإن معظم المفسرين على أن معنى الظن هنا هو اليقين (كما روى الطبرى عن ابن عباس وعن قتادة أنه ظن ظنا يقينا ، وقال مجاهد إن الظن هنا هو العلم)(٢). ولكن التعبير بالظن هنا مبدلا من اليقين أقرب إلى الإنسان فهو صادق كما كان صادقا فى الدنيا حين ظن ظنا يقينا فى رحمة الله وهذا مايوحى به كلام الألوسى ،" لما كان الاعتقاد بأمور الآخرة مطلقا مما لاينفك عن الهواجس والخطرات النفسية كسائر العلوم النظرية نزل منزلة الظن فعبر عنه به لذلك وفيه إشارة إلى أنه غير

---

(١) تفسير الطبرى : ج ٢٩، ص ٥٩.

(٢) الطبرى : ج ٢٩ ، ص ٦٠.

قادح فى الايمان، وجوز أن يكون الظن على حقيقته على أن يكون المراد من حسابه ماحصل له من الحساب اليسير فإن ذلك مما لايقين له به، وإنما ظنه ورجحه لمزيد وثوقه برحمة الله تعالى عز وجل"[١].

وحتى الكافر فى تعبيره عن ندمه يستخدم كلمة(ولم أدر) والدراية تكون بالحقيقة فتصبح الحقيقة ماثلة أمامه وهو أن ماله وسلطانه اللذين خدع بهما فى الدنيا وتصور أنهما نافعان له لم ينفعاه . فيقر بالحقيقة (ما أغنى عنه ماليه ، هلك عنى سلطانيه) (الأيتان ٢٩،٢٨) ولم ينفعه ندمه ويكون جزاؤه الوارد بعد ذلك حقيقة أيضا. وهو يشير إلى احدى الدلالتين خاصة بيان الهول الذى يكون فى الحاقة .

فإذا انتقلنا إلى القسم الثالث نجد التعبير فيها يتوافق مع الصيغة الثالثة :(وماأدراك ماالحاقة) فى تعبير مزدوج الدلالة أيضا ، الهول ، ونفى العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالتالى يكون مايقوله هو كلام الله ، ولذلك تبدأ بالقسم المنفى ، ويكون القسم بما تبصرون ومالاتبصرون مرتبطا بدلالة الحاقة ، فالحقيقة واضحة لمن يبصر كما هى فى مظاهر الكون ، وماخفى منها مرتبط بصيغة النفى، ونلاحظ هنا تكرار " وما" فى الأيتين ، وهذا القرآن حقيقة أمامكم وأنتم تعرفون أنه ليس بقول شاعر ، وحتى إذا كان منكم من يعرف ذلك إلا إنه قليلا ماتؤمنون ، وليس بقول كاهن وأنتم أيضا تعلمون ذلك ولكنكم

---

(١) روح المعانى للألوسى . ج ٢٩، ص ٤٧.

لاتكلفون أنفسكم مجرد التذكر حتى تظلوا فى عماكم فلا تبصرون الحقيقة ، وهذا الرسول الذى أخبركم بالقول صادق وأنتم تعرفون أيضا ، (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين) وبالرغم من هذا فإنا " لنعلم أن منكم مكذبين" و" إنه لحسرة على الكافرين" و" إنه لحق اليقين" .

ولو تأملنا هذا الجزء من السورة لوجدنا به روابط تؤكد الموقفين السابقين أو المقطعين الأولين، فالتهديد للرسول صلى الله عليه وسلم إذا تقول وارد فى الجزء الأول وهو صورة العذاب و" إنا لنعلم أن منكم مكذبين" فقد جاء فىالجزء الأول " كذبت ثمود وعاد بالقارعة" و" إنه لحسرة على الكافرين " تجلى بأوضح مايكون فى حديث من أخذ كتابه بشماله عندما يقول " ياليتنى " وندمه الشديد على الغرور بما له وسلطانه حسرة عليهما وعلى عدم نفعهما ، ثم تأتى الآية قبل الأخيرة " وإنه لحق اليقين" لتعبر عن الجميع .

وقد ذكر القائلون بالمناسبة " مناسبة خاتمة السورة لمطلعها "(١). فهى هنا مناسبة للاسم والمطلع ، ثم هى إشارة جامعة لكل أقسام السورة ، فما حدث للأمم السابقة حق ويقين بحكم المعرفة التاريخية التى يعلمها الذين نزل فيهم القرآن ، والقيامة حق ويقين كما أخبر القرآن الذى هو حق ويقين أيضا، ومادام القرآن الذى أخبرعنهما

---

(١) راجع فى ذلك أحمد أبوزيد : التناسب المعنوى ، ص ٦٦، وكذلك صبحى الفقى: علم اللغة النصى ، ج ٢ ، ص ١٢٤ .

معا حق ومنزل من عند الحق فإن.ماتحدث عنه من أخبار الأمم السابقة وأخبار الغيب المتمثل فى الدار الآخرة وقيامتها حق أيضا .

وكأننا أمام دائرة من المعانى والدلالات تبدأ بالحاقة وتنتهى بحق اليقين ويتوسطها مركز يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية، وكل قسم منها تتبعه تعبيرات ودوال تدل عليه ومن هنا تبدو وحدة السورة أمرا مؤكدا من خلال دوران هذه المعانى وتواصلها من خلال بنية تعبيرية دالة تمثلت فى التكرار الثلاثى الذى بدأت به السورة وتجلى بعد ذلك فى كل أقسامها.

كما نلاحظ أيضا فعل الرقم ثلاثة فى تعبيرات الأقسام ، فإذا كانت الأقسام الرئيسة ثلاثة، فإن كل قسم فى داخله يعتمد علىهذا التقسيم الثلاثى " ففى القسم الأول ذكر ثلاثة أمم بصورة صريحة وواضحة ولذلك أشار إلى الرابع إشارة وليس تصريحا فقد ذكر قوم ثمود وقوم عاد وقوم فرعون ونسبهم إلى جبابرتهم مدعى الألوهية ثمود وعاد وفرعون ، وفى القسم الثانى والخاص بالإشارة للقيامة فى ثلاثة أقسام ؛ الحدوث أو القيام (وهو نفسه فى ثلاثة مظاهر : النفخ فى الصور ، ودك الأرض والجبال وانشقاق السماء) ثم نزول الرحمن والعرض ثم الاستقرار فى المستقر الأخير إما الجنة أو النار ، والقسم الثالث ؛ القرآن وحقيقته ثم نفى التقول عن رسول الله ، ثم بيان تكذيبهم ونتيجته الحسرة حين لاتنفع الحسرةأبدا فى مثل هذا الموقف .

فإذا أفدنا من البنيويين مقولاتهم حول التعارضات الثنائية ومن

علماء النص التقابل لوجدنا ذلك معبرا عن بنية التعبير فى السورة ففى القسم الأول نجد التكذيب يقابله العذاب والهلاك ، والتكذيب ينتج عن جبروت دنيوى ظاهر من هؤلاء الجبابرة والرد عليه من الجبار الحقيقى وهو الله فكأننا أمام تعارض ثنائى فى جبروت بشرى وجبروت إلهى ، ونتيجتهما فالجبروت البشرى مزيف وغير مؤثر والجبروت الإلهى حقيقى ومهلك ، وفى القسم الثانى نجد التقابل بين الأرض والسماء وكلاهما فى يد الله سبحانه وتعالى ومظهر من مظاهر جبروته وهيمنته ثم التعارض الثنائى بين أهل النعيم وأهل العذاب وبين حالهما معا مابين فرح وحسرة، وفى القسم الثالث نجد التعارض والتقابل منذ البداية، فلا أقسم بما تبصرون ومالاتبصرون ، وبين قول الرسول وقول البشر شاعرا كان أم كاهنا ثم التقابل بين المؤمنين والكافرين فالقرآن تذكرة للمتقين وفى الوقت نفسه حسرة على الكافرين المكذبين ، فهو يزيد المتقين إيمانا حين يذكرهم باليوم الآخر فيعملون له كما يعبر عن حالهم على لسان من أوتى كتابه بيمينه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه، ولكن المكذبين لن يجدوا إلا الحسرة.

وهكذا تلعب التعارضات الثنائية والتقابلات دورا مهما فى تدعيم بنية السورة وبالتالى مما يدعم القول بوحدة السورة على مستوى التعبير عن مضمونها وحقيقتها المتمركزة فى الاسم والبداية وحتى فى النهاية .

ويعتمد علماء لغة النص أساسا على الضمائر والروابط وأدوات الاستفهام .. وغيرها فى تحقيق التماسك النصى فاذا بحثنا عنه فى هذه

السورة الكريمة لوجدنا (ما) سواء جاءت مجردة أو مسبوقة بالواو "وما" سنجدها فى الأيتين الثانية والثالثة (ما الحاقة) و (وما أدراك ما الحاقة).

ثم فى القسم الثانى نجدها فى " ما أغنى عنى ماليه " وقد عبرنا (ما) التى جاءت فى قوله " ولم أدر ماحسابيه " حيث ماهنا استفهامية وليست نافية أو مصدرية، و"ما" الموصولة نحو " فلا أقسم بما تبصرون ومالاتبصرون "، ونصل إلى " وماهو بقول شاعر" و " وماهو بقول كاهن " وكذلك قوله تعالى :" فما منكم من أحد عنه حاجزين " وقد جاءت لها صور أخرى " فأما " أربع مرات " فأما ثمود " و " أما عاد" ثم عند القسم الثانى جاءت " فأما من أوتى كتابه بيمينه" و" أما من أوتى كتابه بشماله " ثم " لما " فى "إنا لما طغا الماء" و" بما " فى قوله " بما أسلفتم " و" ما الزائدة فى قوله " قليلا ماتؤمنون " و" قليلا ماتذكرون " ، وهكذا تتردد صورة الحرف الرابط وصوته مع تغير صوره لكن تردده بهذه الصورة فى النص يوحى بأهميته ودلالته فى ربط النص وإحكام تماسكه وبيان وحدته .

والمتأمل فى هذا الرابط يزداد يقينا بإعجاز القرآن الكريم وروعة كلام الله، فقد وردت صيغتان بنصهما وصوتهما فى القسمين الأولين ، الذى يتحدث عن الأمم السابقة والذين ذاقوا لونا من ألوان عذاب الآخرة وقد جاءت الصيغتان هكذا " فأما " و" وأما" فى الآيتين المتتاليتين (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فأهلكوا بريح

صرصر عاتية) وفى القسم الثانى الذى يتحدد فيه مصير الناس بين جنة ونار تأتيان بنفس الصيغتين " فأما " و" أما" فى الآيتين " فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول" و " وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول" وإلحاق النتيجة بالفاء فى الحالتين ، وإذا كانت فى الآيتين الأوليان جاءت النتيجة واحدة وهى " فأهلكوا " فإنها فى الآيتين الأخريين جاءت النتيجة أيضا بصيغة " فيقول " ، ومن هنا نرى مدى التماسك النصى ، ولكى يبرز الفرق بين الحالين جاء بالتقابل فى الأخريين بين اليمين والشمال.

وإذا كان هناك توافقا فى وسيلة الهلاك الدالة على عقاب الله فى الحالة الأولى المتمثلة فى الطاغية والريح الصرصر ، وهناك تماثل بينهما ، فالطاغية فى تفسير كثير من المفسرين هى الصيحة كما يذكر الطبرى:" التى قد جاوزت مقادير الصياح وطغت عليها " مستندا إلى قول قتادة ، ويرجح رأيه لتناسب السياق التالى فى حديثه عن عاد يقول: " وأولى القولين فى ذلك بالصواب قول من قال . معنى ذلك : فأهلكوا بالصيحة الطاغية. وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب ، لأن الله إنما أخبر عن ثمود بالمعنى الذى أهلكها به ، كما أخبر عن عاد بالذى أهلكها به ، فقال :" وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية " ، ولو كان الخبر عن ثمود بالسبب الذى أهلكها من أجله ، كان الخبر أيضا عن عاد كذلك، إذ كان ذلك فى سياق واحد وفى إتباعه ذلك بخبره عن عاد بأن هلاكها كان بالريح الدليل الواضح على أن إخباره عن ثمود إنما هو

مابينت "[1]. ولايخفى مابين الاثنين (الصيحة والريح الصرصر) من تقارب صوتى فالريح الصرصر هى الشديدة القوية التى تحدث صريرا نتيجة اصطدامها بما يقابلها مع شدة هبوبها وبردها ، وهنا يقترب المدلول بما بعده فالصيحة صوت والريح الصرصر تحدث صوتا أيضا.

وعندما ننظر إلى صورتها فى القسم الثالث من السورة نجدها تأتى مجردة من الفاء والهمز وتأتى بصورة "ما" المشددة الميم ، وذلك فى قوله تعالى " قليلا ماتؤمنون"و" قليلا ماتذكرون" وهو مناسب للتعبير فى هذا القسم وهدفه إقرار حقيقة القرآن وماعبر عنه حول القيامة مع بقاء الصورة الشكلية والصوتية أيضا ، وهو مايوضح إسهام هذا الرابط فى بيان تماسك النص وبيان وحدة السورة فى آن واحد فى حالة تواز مع الثنائيات المتعارضة والمتقابلة خاصة وأنها تأتى فى اللغة العربية للتعبير عن المقابلة أو المقارنة أحيانا .

---

(١) تفسير الطبرى، ج ٢٩، ص ٤٩.

٢- الضمير أداة لتماسك النص وبيان وحدته:

يعد علماء لغة النص الضمير عاملا مهما من عوامل تماسك النص ، ويتفق فى ذلك هاليدى ورقية حسن وسعيد بحيرى وطبقه صبحى الفقى على السور القرآنية المكية وبالرغم من أنه لم يشر إلى سورة الحاقة مع أن الضمير فيها - باعتباره رابطا - يتضح بصورة كبيرة، ولما كان الحديث موجها من الله تعالى إلى البشر فإن ضمير الخطاب يكون هو الأكثر ورودا وربطا لأقسام النص سواء جاء فى صيغة التعبير " كم" أو " تم " أو مستترا تعبر عنه صيغة الفعل بـ "ت" ويأتى بعده ضمير الغيبة " ها" للمؤنث و"هو" للمذكر و "هم" للجمع .

ولنبدأ بضمير الخطاب فسنجد فى القسم الأول " إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية" والاثنان بصيغة (كم). وفى القسم الثانى نجده يتكرر مرتين ، مرة فى صيغة "كم" كما فى قوله تعالى " يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية" والمرة الثانية بصيغة " تم" فى قوله تعالى (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) وفى القسم الثالث نجده يتكرر مرتين أيضا فى قوله تعالى :(فمامنكم من أحد عنه حاجزين) وفى قوله: (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) . مما يؤكد الترابط بين أقسام السورة الثلاث.

وإذا كان هذا الضمير يعد أكثر الضمائر ورودا بهذه الصورة الرابطة فى الأقسام الثلاث، فإنه يوحى بأمر آخر فى إطار الحديث عن البنية التعبيرية ، وهو أنه يأتى دالا على روح السورة من حيث كونها

خطابا بين الله والإنسان سواء كان بشرا عاديا من أهل الإيمان أو من أهل الكفر، وبين الله سبحانه وتعالى ونبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وبين الله وملائكته خاصة خزنة النار ، تبدأ بالآية التى تسأل الرسول صلى الله عليه وسلم . (فهل ترى لهم من باقية) ثم تثنى بالآية التى أشرت إليها قبل قليل وهى (إنا لما طغا الماء حملناكم)ثم (والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) ثم(يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية) وبعدها (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم) ثم حديث الله إلى خزنة النار وهم ملائكته (خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه)، ويأتى القسم الثالث فى معظمه حديث موجه إلى المكذبين للقرآن واليوم الآخر على السواء (فلا أقسم بما تبصرون ومالاتبصرون) ثم (قليلا ما تؤمنون) و(قليلا ماتذكرون) ثم (فما منكم من أحد عنه حاجزين) ثم (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) ثم فى النهاية (فسبح باسم ربك العظيم).

وألاحظ أن الخطاب الموجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم جاء ثلاث مرات أيضا ، ففى القسم الأول (فهل ترى لهم من باقية) وفى القسم الثانى (ويحمل عرش ربك فوقهم) وفى النهاية(فسبح باسم ربك العظيم) ، وله ارتباط بمفتتح السورة التى جاء فيها (وماأدراك ماالحاقة) مما يوحى بترابط أقسام السورة فى إطار وحدة متكاملة للسورة كلها لتخرج صيحة تحذير للناس من يوم القيامة على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويأتى بعده ضمير الغيبة فى صورته المؤنثة(ها) وترد فى القسم الأول من السورة أربع مرات فى قوله تعالى : (سخرها عليهم) و (فترى القوم فيها صرعى) و (لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) وفى القسم الثانى ترد أربع مرات أيضا فى قوله تعالى :(والملك على أرجائها)و(قطوفها دانية) و (ياليتها كانت القاضية) و(ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) ، وهكذا نجد التوافق بين الماضى والمستقبل حول الحاقة أيضا ، ولكن فى القسم الثالث الذى يركز على القرآن يأتى الضمير مذكرا (هو) فى حالة الاتصال أو الانفصال على السواء وذلك فى قوله :(إنه لقول رسول كريم)، و (ماهو بقول شاعر) و(لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين) وهذا عن الرسول صلى الله عليه وسلم ثم عودة إلى القرآن فى قوله تعالى:(وإنه لتذكرة للمتقين ، وإنه لحسرةعلىالكافرين وإنه لحق اليقين) فى تبادل مستمر بين الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن الكريم ، وذلك لأنهما متحدان فنزول القرآن الكريم على الرسول جعل منهما واحدا:(إنه لقول رسول كريم)، وهذا يوحى بمدى التناسب والتناسق بين التعبير فى كل قسم ومايحتويه من ضمائر.

وفى النهاية يأتى ضمير الخطاب الإلهى ونلاحظ روعة التعبير ودلالته على إعجاز القرآن فعند الحديث عن الأمم السابقة لانجد ضميرا للخطاب الإلهى سواء بالمفرد أو الجمع (إنى أو إنا) حتى فى انزال العقاب عبر عن نفسه بضمير الغيبة أو بالفعل المبنى للمجهول مثل

قوله تعالى: (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ، وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم) وكذلك عند قوم فرعون (فأخذهم أخذة رابية) ثم يتحول الضمير بعد ذلك إلى (إنا) بدءا من الآية الرابطة (إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية لنجعلها) ، وبعد ذلك فى حديثه عن القرآن (فلا أقسم) وقوله :(ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين) ، وقوله (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) ويتضح التناسب والتناسق من حيث الدلالة على الانفصال والاتصال ، فالأمم السابقة كانت محادة لله ورسله وقد اغتروا بأنفسهم وظنوا أنهم فى مقام الندية مع الله وحاش لله ذلك ، ولذلك جاء الضمير فى حالة غيبة أو ببناء الفعل للمجهول احتقارا لهم واستهجانا لأفعالهم، ولما بدأ توجيه الحديث إلى النبى صلى الله عليه وسلم وأمته تحدث معهم بصيغة المتكلم وبصورة جمعية ،وهو أمر يشيع كثيرا فى القرآن الكريم حتى ولو كان فى مقام التهديد كما فى القسم الأخير من السورة ،وهو مايعبر عن وحدة السورة وتماسكها من خلال الضمير فى الصور والصيغ التى جاء بها .

التناص باعتباره رابطا:

تتسم السورة بسمة تعبيرية أخرى توحى بارتباطها بما قبلها من السور المكية التى تحدثت عن يوم القيامة وقد سبقتها فى النزول وربما أيضا مانزل بعدها يتضح هذا أولا من أسماء القيامة الواردة فيها وكانت أسماء لسور أخرى مثل القارعة فى قوله تعالى " كذبت ثمود وعاد بالقارعة" وهو اسم لسورة القارعة التى وصفت يوم القيامة، واللافت للنظر أنها أيضا يتفق اسمها مع مطلعها ، وجاء التعبير فيه ثلاثيا بنفس الصورة التى جاءت فى الحاقة (القارعة ماالقارعة . وماأدراك ماالقارعة) وفيها وصف للجبال التى تصير كالعهن المنفوش ، وفيها "فأما من " و " وأما من " .

وبمناسبة الجبال فإنها ذكرت فى أكثر من سورة تحدثت عن القيامة فى سورة طه قوله تعالى " ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا " ، وفى سورة الواقعة" إذا رجت الأرض رجا وبست الجبال بسا) وفى سورة التكوير (وإذا الجبال سيرت) وكذلك فى سورة القارعة" وتكون الجبال كالعهن المنفوش" وهنا تتضح مناسبة السورة لما قبلها من السور ، فقد جاء التعبير هنا (وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة) أى جمع الأرض والجبال هنا كما جاء فى سورة الواقعة.

وقد ورد فى السورة اسم الواقعة ، وجاء التعبير متوافقا مع

بداية سورة الواقعة الذى جاء فى هذه الصورة (إذا وقعت الواقعة) ، وهنا فى سورة الحاقة (فيومئذ وقعت الواقعة) ، وكذلك الانشقاق حيث جاء التعبير فى بدايتها متوافقا مع اسمها (إذا السماء انشقت) ، ولموافقة الصورة التعبيرية التى سبقتها من حيث كونها جملة فعلية ولذلك جاء التعبير هنا فى سورة الحاقة (وانشقت السماء فهى يومئذ واهية).

ونجد كذلك إشارة إلى مافصل فى سورتى هود والقمر حول نوح من غير ذكر صريح له فالأسماء ليست هى المقصودة بقدر الأحداث وهذا مالاحظته فى التعبير والتناص على السواء ، وذلك فى قوله تعالى (إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية) فقد فصلت فى سورة هود من فوران التنور . وحمل المؤمنين فى الفلك ، ثم توقف الماء واستوائها على الجودى ، ثم التوافق مع سورة فىمثل حجمها وهى القمر ، والتناص معها أكثر وضوحا ففيها طغيان الماء " فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر . وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر . وحملناه على ذات ألواح ودثر . تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ولقد تركناها آية فهل من مدكر)[١] ففيها (طغيان الماء) وفيها (حملنا) وفيها (تجرى) وفيها (مدكر) وإذا كانت فى سورة القمر جاءت بصيغة الفعل لتناسب السورة التى بدأت بالفعل (اقتربت) فإنها فى سورة الحاقة جاءت بصيغةالفاعل

---

(١) سورة القمر ، الآيات من ١٠ إلى ١٧.

خاصةفى (تجرى) فقد جاءت (فى الجارية) مع أن فيها أفعال (طغا) دلالة على حدثين ذكرا فى القمر " ففتحنا أبواب السماء " و" فجرنا الأرض" و " فالتقى الماء " والفعل " حملنا " هو واحد فى السورتين مع اختلاف الضمير فهناك فى القمر ملائم للضمير الرابط فى السورة وهو ضمير الغائب ،وهنا ملائم للضمير المخاطب (كم) أما الجارية فقد جاءت متوافقة مع الفواصل التى تبنتها السورة فى قسميها الأولين كما ألاحظ هناك " مدكر" ... ، وقد جاءت بصيغة اسم الفاعل من فعل غير ثلاثى، وفى سورة الحاقة(لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) ليتضح أن الهدف هو التذكر والعمل على تجنب الموقف العسير يوم الحساب .

ونجد أيضا فى السورة تناصا بينها وبين سورة الماعون فىآية كاملة " ولايحض على طعام المسكين " باعتبار أن هذا الأمر أحد وسائل رضا الله أو مسببا لغضبه على من لم يحرصوا عليه ، ثم فى قوله " فليس له اليوم هاهنا حميم " استدعاء لما فى سورة المعارج " ولايسأل حميم حميما " والمتأمل فى هذا اللفظ يجد أنه ورد فى نحو خمس عشرة سورة وكلها تتحدث عن يوم القيامة، خاصة فى المواضع التى ذكر فيها ، وله دلالتان متضادتان ، فهو يعبر عن العذاب ممثلا فى الطعام أو الشراب أو صورة العذاب بصفة عامة، ثم يعبر فى اتجاه آخر عن الصداقة الشديدة والتى لاتغنى يوم القيامة ، ويلمح القرطبى إلى العلاقة بين المعنيين المتضادين يقول " والحميم هاهنا القريب أى

ليس له قريب يرق له ويدفع عنه ، وهو مأخوذ من الحميم وهو الماء الحار ، كأنه الصديق الذى يرق ويحترق قلبه له"(١)، ولهذا المعنى نجد توارد اللفظ بمعنييه دائما فى القرآن عند الحديث عن عذاب النار .

والحق أن أكثر السور تناصا مع سورة الحاقة هى سورة الواقعة، فالاثنتان تتحدثان عن يوم القيامة، وخاصة عندما يصبح حقيقة، فإذا وقعت الواقعة صارت حقيقة، ثم أهل اليمين وأهل الشمال ، ثم القسم بنفس الصيغة " فلا أقسم " وإذا كان فى سورة الواقعة أقسم بمواقع النجوم وهى شئ محسوس يمكن رؤيته بالبصر وبعضه قد لايستطيع البصر إدراكه ، فقد عمم فى سورة الحاقة فجعل القسم بما تبصرون ومالاتبصرون ،وفى سورة الواقعة قال إنه لقرآن كريم وبالتالى لم يكن فى حاجة إلى نفى الشعر والكهانة عنه، ولما كانت سورة الحاقة متأخرة ونزلت بعد أقوالهم فى القرآن إنه سحر وشعر وكهانة، كان من طبيعة السياق هنا أن تتطلب نفى هذه الاتهامات عنه ، ولذلك جاءت بعدها آية وردت بنصها فى سورة الواقعة وهى قوله تعالى " تنزيل من رب العالمين" ، ثم بين فى الحالتين أنهم بالرغم من ذلك التأكيد سيظلون مكذبين فقال فى سورة الواقعة (أفبهذا الحديث أنتم مدهنون وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) وفى سورة الحاقة (وإنا لنعلم أن منكم مكذبين) ثم التماثل شبه التام بين آيتى الختام ، ففي سورة الواقعة (إن هذا لهو حق اليقين ، فسبح بأسم ربك العظيم " وفى سورة

---

(١) تفسير القرطبى ، منج ١٠ ، ص ٧٠٠٠.

الحاقة (وانه لحق اليقين ، فسبح باسم ربك العظيم) حتى التعبير بقوله " باسم" جاء فى صورة متشابهة فى الكتابة غير مابدى به القرآن " بسم " وصياغتها فى صورة التأكيد بإن واللام جاء متماثلا.

وهكذا تبدو سورة " الحاقة" جامعة للمعانى والمضامين التى وردت فى السور التى تحدثت عن القيامة . ومن هنا يبدو تناسبها وارتباطها بوحدة قرآنية شاملة، وفى الوقت نفسه يعد دليلا على وحدتها وارتباط أقسامها ببعضها فى تلاحم شديد . فكل قسم منها احتوى على التناص ، ففى الجزء الأول يتحدث عن الأمم السابقة تناص مع غيرها من السور التى تحدثت عن هذه الأمم ، وفى القسم الثانى الخاص بوصف يوم القيامة تناص، وفى القسم الثالث المتحدث عن القرآن تناص مع السور الأخرى التى تحدثت عن القرآن وإن كنت قد ركزت الحديث علىسورة الواقعة فإن هذا لاينفى صلتها بسور أخرى فيها حديث عن يوم القيامة ، فكلمة شاعر وردت فى الأنبياء والصافات والطور وكلمةكاهن وردت فى سورة القلم وهكذا مما جعلنى أتخذه دليلا على وحدة السورة.

وهكذا تكتمل كل وسائل التعبير فى السورة سواء من خلال الألفاظ ومدلولاتها أو الحروف الرابطة بين اقسامها من خلال نسق منظم لورودها وكذلك من خلال الضمير فى صورد المتعددة أو عدد مرات وروده فى كل قسم ، ثم فى النهاية من طريق التناص

بينها وبين السور المختلفة فى القرآن الكريم والتى تحدثت عن القيامة زمانا ومكانا ومظاهر حدوثها والبعث والحشر والحساب، والنتيجة فى الجنة والنار ومايحدث لكل فريق من نعيم ينعم به أهل الجنة ، وعذاب لأهل النار الذين كذبوا بها وخدعتهم مظاهر دنياهم فأغفلتهم عن العمل لهذا اليوم الحقيقى والمهيب فى كل أحداثه حتى ليشيب من هوله الولدان .

ثانيا : التصوير وأثره فى وحدة السورة(البنيةالبلاغية /التصويرية)

مظهر آخر من مظاهر وحدة السورة يتجلى فى التصوير أو التعبير البيانى سواء كانت الصور جزئيةكما يتحدث عنها البلاغيون أو صورا كلية تكون لوحات متكاملة من هذه الصور الجزئية، أو من أساليب خبرية ليس فيها مجاز جزئى ولكنها ترسم فى النهاية صورة واضحة.

وتعتمد سورة الحاقة على الصورة الكلية، وهو دليل آخر علىوحدة السورة، منذ البداية نجد صورة كليةفى كلمة واحدة وهى (الحاقة) ومدلولاتها وإيحاءتها تعطى صورة متكاملة لما يجرى من حساب يوم القيامة كما ذكرت قبل ذلك ،وقد فسرت بعد ذلك فى القسم الثانىمنها من أول قوله تعالى:(يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية) وحتى قوله تعالى (لايأكله إلا الخاطئون) ، وربما كان هذا سببا فى مجيئها على هذه الصورة من غير فعل يسبقها أو خبر يلحق بها حتى تبث فى نفس مستمعها أو قارئها أبعاد الصورة المرجو وصولها إلى نفوس المتلقين .

ثم تأتى فى القسم الأول صورة كلية مجمعة للأمم الماضية تتكون من عدة صورة كلية وجزئية فالأولى صورة قوم ثمود لما كذبوا والعذاب الذى حل عليهم بالطاغية ، ومن خلال التفسيرات المختلفة لكلمة الطاغية سواء كنت رجفة أو صيحة أو دمارا ناتجة عن الصاعقة وقد جاء فى القرآن الكريم تفسير لها فى قوله تعالى (فإن أعرضوا فقل

أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)[1]، وتليها صورة كلية مرتبطة بها وهى صورة قوم عاد حينما أرسل الله عليهم الريح الصرصر العاتية، ويتضح التصوير من خطاب الله لمحمد صلى الله عليه وسلم (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، فهل ترى لهم من باقية)وكما أن الصاعقة الطاغية لم تبق أحدا فكذلك الريح لم تبق أحدا ثم الصورة المجملة لفرعون ومن قبله من الجبابرة المكذبين والمخطئين ، وإن كان بعض المفسرين يقصرها على قوم لوط فى فعلهم الخاطئ[2]. إلا أن اللفظ يدل على عموم الأقوام المكذبين فأخذهم أخذة رابية أى زائدة عن الحد والتصور ، وتتبعها صورة قوم نوح وماجرى لهم من طغيان الماء المنهمر من السماء والمتفجر من الأرض وسفينة نوح تجرى بينه حاملة المؤمنين لتنجيهم من الغرق .

هذه الصور الكلية تكون أو تشكل لوحة كبيرة تتحدث عن ماضى الأمم السابقة من المكذبين وعناصرها الثلاثة: المكذبون ، والرسل الذين أنذروهم ، والعقاب الذى حل عليهم ويجمعهم جميعا هول العذاب الذى كان فى كل مرة زائدا عن تصور المتصورين ، لأنهم لو تصوروها أو استحضروا صورتها لما أقدموا على سلوكهم المكذب ، بل لآمنوا وعملوا لها حتى يتقوا هولها .

---

(١) فصلت: ١٣.

(٢) راجع الكشاف للزمخشرى ، ط بولاق، ج ٣ ، ص ٢١٣.

ونلاحظ أيضا أن القسم الثانى الذى يتحدث عن يوم القيامة يأتى أيضا فى صورة كلية تشكل لوحة متكاملة لما يحدث فى يوم القيامة ثم تتفرع هذه الصورة إلى صور كلية أخرى اولها تمثل صورة حدوث أو وقوع الساعة الذى يبدأ بالنفخ فى الصور ثم رج الأرض ودكها مع الجبال وانشقاق السماء ونزول الملائكة فى صفوف تحف بأقسام السماء المنشقة أو المنفطرة ، والأربعة الذين يحملون عرش الرحمن ،وتعبر الصورة الثانية عن حالة الحساب فى جملهواحده لكنها تشكل صورة (يومئذ تعرضون لاتخفى منكم خافية) وكما قال المفسرون وذكرت ذلك من قبل أنها تجمع العرضات الثلاث فى كلمه واحده ، ثم التعبير عن حالة الناس حينما تتضح أمامهم الحقيقة. وتتبعها صورتان متناقضان أو متضادتان أهل اليمين ، وهم فرحون لتلقيهم كتابهم بيمينهم، وعرضه على الناس ليقرؤوه فرحا بما تضمنه من محسن ، وصورة العيشة الراضية فى الجنة بمأكلها ومشربها ،وتقابلها الصورة الأليمة الأخرى صورة أهل الشمال وعلامات الحسرة والندم وصيفهم بكل ماتنعموا به من مظاهر الدنيا من مال او سلطان ، وتتبعها صورة الملائكة وهم يؤمرون فينفذون بأخذ هؤلاء الظالمين لانفسهم . ونكبيلهم بالسلاسل وإلقائهم فى الجحيم تنفيذا لأمر الله سبحانه وتحقيق لعدل الله سبحانه وتعالى يبين لهم مبررات هذا الموقف ، ثم تفرق وتنازع الأصدقاء.

ويأتى القسم الثالث فى صورة واحدة تمس حال الدعوة الإسلامية والقرآن فى ان واحد ، وتتمثل فى خطاب الله لهم على لسان نبيه صلى

الله عليه وسلم (فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون) ،ولجاجهم مع الرسول حول القرآن مرةبأنه شعر ومرة بأنه كهانة، وتنزيهه للنبى صلى الله عليه وسلم عن الكذب على الله وإقرار حال الناس بين مؤمنين ومكذبين كافرين ليربط هذه الصورة بما قبلها من الصور فى القسم الأول والقسم الثانى كذلك من خلال بيان أثر القرآن على المتقين بتذكيرهم الدائم بالله واليوم الآخر ، ومن ثم يكونون فى عداد أهل اليمين ، ونتيجة تكذيب الكافرين وهى الحسرة ، وقد سبق فى القسم الثانى ورسم لها صورة واضحة على لسان من أوتى كتابه بشماله .

واللافت للنظر أن التصوير فى القسم الثانى أبرز من الصور الأخرى من حخيث المساحة التى استغرقها وهذا يتفق وعنوان السورة وبدايتها لأنها تمثل نقطة المركز فى السورة، وفى صورة القسم الأول والقسم الثالث يعول عليه، ففى الصورة الأولى وصفت العذاب المتمثل فىالصيحة وهى ترتبط بالنفخة فى الصور ومايصاحبها من دك الأرض وانشقاقها، وفى الصورة الأخيرة نجد الحسرة على وجوه الكافرين، وهى صورة من الصور التى تشكل الصورة المركز ففيها الحسرة على وجه من أوتى كتابه بشماله .

وكل لوحة من اللوحات الكبرى، والصور الكلية التى تدخل فى إطارها تستخدم كل وسائل التصوير البلاغى من صوت ولون وحركة، وإن كان الصوت هو الغالب عليها ، وذلك لإبراز المنظر وتجسيد المعنى حتى يصبح وكأنه منظر مرئى ، وهو أمر لاحظه سيد قطب

سواء فى التصوير الفنى للقرآن الكريم أو فى مشاهد القيامة فى القرآن أو بصورة عامة فى الظلال الذى جعله تصويرا بشريا مقابلا للتصوير الإلهى أو مفسرا له، وفى مشاهد القيامةيقول تعليقا على صورة القيامة (الصورة الثانية): " هانحن أولاء نشهد العرض ،نشهده مجسما مخيلا فى أشد المواضع التى يحرص الإسلام على التجريد فيها والتنزيه ، ولكن طريقة التعبير بالتصوير تختار التجسيم فى هذا الموضع أيضا لمجرد إثارة الحس وإشراك الخيال والتأثير الوجدانى الحار"(١)، ويدعم هذا بما قاله فى الظلال " إن أسلوب السورة يحاصر الحس بالمشاهد الحية المتناهية الحيوية بحيث لايملك منها فكاكا ولايتصور إلا أنها حية واقعة حاضرة ، تطالعه بحيويتها وقوتها وفاعليتها بصورة عجيبة "(٢).

والمتأمل للتصوير يجد تناسبا مع حالة من نزل عليهم القرآن ، وهومايسميه علماء النص المرجعية الخارجية التى يمكن أن نحيل عليها النص ، حيث إن هؤلاء كانوا يعيشون حياة مادية،ومن ثم فإن التصوير والتجسيم هنا أمر ضرورى ولازم لإقناعهم حتى يؤمنوا ، ومن هنا تكاملت البنية التصويرية مع البنية التعبيرية ، لأنهم على مستوى التعبير أصحاب بيان وبلاغة كما يتجلىفى شعرهم أو حتى فى مقارنتهم أحيانا للقرآن بالشعر ، وعلى مستوى الحياة كانوا يؤمنون بمظاهر الحياة المادية لدرجة أنهم جسموا الإله ، وجعلوا له صورا تتمثل فى الآلهة

---

(١) سيد قطب : مشاهد القيامة فىالقرآن ، ط٨ ، دار المعارف بمصر، ص ١٨٣.

(٢) سيد قطب : فى ظلا ل القرآن ، ط ٢٩، ص ٣٦٧٥

التى اتخذوها من دون الله الواحد الأحد، الذىكانوا يعرفونه ،ولكن لجحودهم لغيبيته وعدم استيعابهم لهذه الغيبية تخيلوا صورا له أو لمعانيهم عنه ، وعدوه وسائل للتقرب إليه ، وبالتالى فإن قوما بهذه الخلفية الثقافية والإجتماعية لايمكن الاكتفاء بمخاطبتهم بالقول البليغ فقط وإنما لابد أن يصاحب هذا القول البليغ تصوير بديع يجسم لهم المعنويات وحتى الغيبيات يبرزها لهم فىصورة محسوسة لتقترب من أذهانهم فيؤمنوا أو يرتدعوا عن سلوكهم باتباع الطريق القويم المتمثل فى الدين الإسلامى والنهج المحمدى .

وإذا استعرضنا مافى السورة من صور بلاغية جزئية نجدها تكرس فكرة الترابط بين الصور الثلاثة ، وتدعم أيضا فكرة وحدة السورة من حيث ارتباطها ببعضها ، وأكثر الأشكال البلاغية دورانا فى السورة هى الكناية ، ففى القسم الأول منها نجد الطاغية كناية عن طغيانها على الكل بإفنائهم ، وعن زيادتها فوق المتصور ،.والعاتية كناية عن زيادتها عن المقرر لها كما تقول الآية الكريمة (فعتت عن أمر ربها)، ويدعمها حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذى رواه ابن عباس ويقول :" ماأرسل الله من نسمة من ريح إلا بمكيال ولا قطرة ماء إلا بمكيال إلا يوم عاد ويوم نوح فإن الماء يوم نوح طغى على الخزان فلم يكن لهم عليه سبيل ثم قرأ:(إنا لما طغا الماء حملناكم فى الجارية) والريح لما كان يوم عاد عتت على الخزان فلم يكن لهم

عليها سبيل، ثم قرأ (بريح صرصر عاتية)" [1] . وهكذا يتضح فيها المجاز الكنائى للتعبير عن غضب الله وسخطه عليهم وأيضا فى هذا الإطار تأتى رابية كناية عن زيادتها عن الحد المقرر .

ولكن فى هذا القسم يأتى تشبيه واحد ولكنه دال ورابط أيضا وذلك فى قوله تعالي (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) ، فهو مكتمل الأركان ، فيه المشبه والمشبه به وأداة التشبيه ، وبالرغم من أن البلاغيين يعدون هذا النوع أقل أنواع التشبيه بلاغةأو دلالة بلاغية لوضوحه أو لتكامل الأركان فيه فلا يعمل الذهن أو يكدح فى فهم العلاقة بينهما ، إلا أنه هنا يخالف رأيهم من حيث بلاغته ودلالته على ترابط أجزاء السورة، ذلك لأن الصورة تأتى معبرة عن حال هؤلاء نتيجة عقاب الله لهم وكما تقول بعض التفاسير إنهم صاروا مجوفين كجذوع النخل التى خوت مما بداخلها ، وهذا يدل على ضخامة أجسامهم (ومع هذا لم تنفعهم ساعة العذاب) والريح حين تقتلع جذوع النخل فتلقيها أرضا وتحملها فى الهواء ، وقد صاروا مثلها بفعل هذه الريح العاتية ويذكر القرطبى قول يحيى بن سلام " إنما قال خاوية لأن أبدانهم خوت من أرواحهم مثل النخل الخاوية"[2].

---

(١) تفسير القرطبى . مج ١٠ ، ص ٦٩٨٦. وكذلك الرازى مج ١٥،ج٣٠ ، ص ٦٨٥ والكشاف للزمخشرى ج ٣ ، ص ٢١٢.

(٢) القرطبى، مج ١٠، ص ٦٩٨٨.

وهذا وجه واحد من الصورة لكن هناك وجوها أخرى مثل التركيز على عجز النخل ففيه دلالتان ؛ الأولى أن العجز لاثمر فيه ، ولأنهم كانوا كفارا مكذبين فلا فائدة ترجى منهم، والثانية أن العجز يكون هو الأساس الملتصق بالأرض ، واقتلاعه يعنى فناء النخل من الأصل فلا يعد له وجود وهذا ماحدث لهم وبينه تساؤل الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم (فهل ترى لهم من باقية ؟) ثم يأتى الوجه الآخر وهو الذى يمثل دلالة هامة فى موضوعنا ؛ لأنه يعد رابطا من حيث إن هذه الأعجاز الخاوية من النخيل بعد اقتلاعها لاتصلح إلا للحريق حيث يجمعها الناس ليجعلوها وقودا لنارهم ، وهنا نجد الربط بينها وبين مصيرهم المنتظر فهى تعد إشارة له ، وتكون القرينة الأكثر تخيلا لاتصالها بالنار الذى يأتى وصفها فى القسم الثانى أو فى اللوحة الثانية من لوحات السورة الكلية ثم تأتىالجارية متوافقة مع صيغة الفاعل التى تنتظم السورة لتكون كناية عن فلك نوح وقد جاءت فى سورة هود وغيرها من السور ، وكناية فى الوقت نفسه عن عناية الله بها وهذا يستدل من قوله تعالى فىسورة القمر (تجرى بأعيننا).

وحينما ننتقل إلى القسم الثانى نجد التعبير الكنائي سائدا أيضا منذ البداية ففى نفخة واحدة كناية عن توحد أمر الله لأنه من المعلوم أن النفخ يكون مرتين ، مرة للهلاك ومرة للبعث والحساب . ويدعمها قول الله تعالى عن الأرض والجبال التى تدك دكة واحدة ، وفى قوله (وحملت) كناية عن القدرة الإلهية حيث يصبح كل شئ ضعيفا مهما

كان قويا راسخا فى الدنيا ، ثم فى قوله تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) كناية عن الملائكة، لأن معظم المفسرين لايتفقون على حقيقة العدد هل هم ثمانية ملائكة أم ثمانية صفوف من الملائكة ، ثم يرد التعبير الكنائى(هاؤم اقرؤوا كتابيه) تعبيرا عن فرحه ببياض الكتاب وخلوه من السيئات ، ورغبته فى أن يطلع عليه جميع الخلق ثم يقابله الآخر بقوله (ياليتنى لم أوت كتابيه) كناية عن الحسرة والندم فى وقت لاينفع فيه الندم ، ويدعم بقوله (ولم أدر ماحسابيه) و(ياليتها كانت القاضية، ماأغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه) ، ومن ثم يكون أمر الله للملائكة خزنة النار بتكبيله فى سلسلة (ذرعها سبعون ذراعا)، ومعظم المفسرين علىأنها من باب التهويل أى كناية عن إحكام قيده فى النار ليذوق العذاب ، والعدد ليس مقصودا لذاته إذ يكفى ذراع واحد ليحقق الهدف.

ثم يأتى التعبير الكنائى أيضا فى مبررات العذاب (ولا يحض على طعام المسكين) تعبيرا دالا على كثير من المعانى ومكنيا عنها ، فهو كناية عن بخله واستئثاره بنعم الله عليه ليتمتع بها وحده ويحبسها عن المساكين، هو أيضا كناية عن تخفيف الله عن عباده حتى لايصبح إطعام المسكين فرضا على الناس جميعا قادرا وغير قادر ، فيجعله مجرد حض وحث فمن لايملك المال

لإطعام المسكين يملك القدرة على الدعوة إليه ، ومن ثم لايكون هناك مبرر للتقاعس.

وفى القسم الثالث يأتى قول الله تعالى (فلا أقسم بما تبصرون ومالاتبصرون) نجد "مالا تبصرون" ، كناية عن عدم إحاطة الخلق بمكنون علم الله ومخلوقاته التى لاتحد ، ثم فى قوله تعالى (لقطعنا منه الوتين) كناية عن الإهلاك التام ؛ لأن الوتين عندالمفسرين هو العرق الذى يتعلق بالقلب إذا انقطع ما تصاحبه استنادا إلى رأى ابن عباس [1]. ويدعمه قوله تعالى (فمامنكم من أحد عنه حاجزين) كناية عن عجز البشر أمام قدرة الله سبحانه وتعالى مهما تكن قوتهم، ثم يأتى قوله تعالى :(وإنه لحسرة على الكافرين) كناية عن نتيجة التكذيب بالقرآن ، وفى لنهاية يختتم بهذا التعبير العظيم الدال على كل ماجاء فى السورة. وهو قوله تعالى (وإنه لحق اليقين) بإضافة اليقين إلى الحق ، لأن الحق لايحتاج إلى تدعيم فهو واضح جلى لأنه حق ، ولكنه هنا كناية عن رسوخ هذا الحق فى نفوس المؤمنين المتيقنين منه، لأن الحق أمام المكذبين غير راسخ فى قلوبهم بل هم مكذبون له ، أى أن الحق يستوى فى العرض أمام الفريقين ولكن يختلف التلقى له بين فريق وآخر ، فالمؤمنون يوقنون به والآخرون يتلقونه بالتكذيب ، ومن هنا جاءت

---

(١) تفسير القرطبى، مج ١٠، ص ٧٠٠٣.

الكناية عنهم ، بل وجامعة لكل معانى السورة ومدعمة لبدايتها التى أشارت إلى الحق وأقرته فى صيغتها المبدوءة بها السورة.

وهكذا يتضح لنا على مستوى بنية التصوير وحدة السورة فكل أقسامها تعتمد على اللوحات الكلية وفى داخلها الصور الكلية ، ثم التركيز فى التصوير الجزئى على الكناية عبر أقسام السورة كلها ، لتتضافر البنية البلاغية مع البنية التعبيرية فى تشكيل وحدة السورة القرآنية ممثلة فى النموذج الذى أمامنا وهو سورة الحاقة.

ثالثا : البنية الصوتية ودورها فى وحدة السورة :

لاشك أن البنية الصوتية من أهم مميزات اللغة العربية ، وتلعب دورا مهما فى تماسك النص العربى ووحدته سواء كان هذا النص شعرا أم نثرا ،وقد أفردت درسات كثيرة لدراسة الصوت اللغوى فى العربية ، وقد استعرض أحمد أبوزيد هذه الجهود فى كتابه التناسب البيانى فيما يغنى عن إعادة العرض ، وقد أضاف إليها بيان ذلك من خلال القرآن، وخص هذا الموضوع بفصل كامل حول روعة القرآن وجمال التناسب الإيقاعى وبدأه ببيان رأى السابقين من عرب ومستشرقين وانتهى فيه إلى مايلى" وقد استخدم الإيقاع فى القرآن بطريقة محكمة ، وكان يؤلف فى التعبير بين الغرض الدينى والغرض الفنى الجمالى ، ويجعل هذا الغرض الثانى أداة مقصودة للتأثير الوجدانى ، فيخاطب حاسة الوجدان الدينية بلغة الجمال الفنية التى يعد الايقاع أحد ركائزها ، والفن والدين صنوان يتلاقيان فى أعماق النفس وقرارة الروح "(١).

ويرى أيضا " أن البنية الإيقاعية للآية أو الآيات تتألف من عناصر صوتية ولفظية وزمانية متداخلة تـــــدرك الأذن السليمة جمالها "(٢). وذلك حتى قبل أن تعرف هذا دراسة وتمحيصا ، إن المستمع للقرآن حتى ولو كان أجنبيا يدرك هذه الخاصية من قبل أن يعرف العربية وأسرارها ، ربما لذلك التناسب شديد الإحكام بين

---

(١) التناسب البيانى ، ص ٢٥١

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٦.

الكلمات والأصوات فى الآية القرآنية وخاصة إذا رتل بأحكامه من مد ووقف سواء كان فى منتصف الآيات أو على رؤس الآى ، ولذلك أمر الله عز وجل بالاستماع للقرآن والإنصات له " وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون " .

وتمثل سورة الحاقة وحدة صوتية مؤثرة فيمن يستمعها سواء على مستوى التركيب الصوتى للآيات أو على مستوى الفواصل ، فالسورة تبدأ بنظام صوتى متدرج على مستوى تركيب العبارات ، فالآية الأولى كلمة واحدة ثم إضافة "ما" الاستفهامية إليها مع أنها لاتحدث تغييرا صوتيا لأنها بحسب الكتابة العروضية تندمج مع الكلمة فى الصوت ، ثم تأتى الآية الثالثة لتضيف إليها " وما أدراك ماالحاقة" ثم تأتى آيتان متساويتان بعد ذلك (كذبت ثمود وعاد بالقارعة. فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية) وبحساب التقسيم العروضى للحركات والسكنات نجدهما متساويتين مع بعض التغيير الطفيف فى هذه الحركات والسكنات هكذا.

الآية الأولى: ٥١١٥١٥١/٥١٥١١/١٥١١/٥١١٥١

الآية الثانية: ٥١١٥١٥١/٥١١٥١١/١٥١١/٥١٥١١

فقد أصبح المقطع الأول فى الآية الثانية مكونا من وتد مجموع وسبب ثقيل فى مقابل سبب خفيف ووتد مجموعة وكذلك فى المقطع الرابع يتكون من وتدين مجموعين فى مقابل وتد مجموع وسبب خفيف بمصطلح العروضيين أى أن التدرج فى الزيادة يتمشى مع مضمون

السورة والهدف منها وهو الترهيب ،ويبدأ دائما بالقصير ويتلوه الطويل حتى يتم إقرار المعنى فى النفوس .

ولذلك نلحظ الزيادة المستمرة فى الآيات الثلاثة التالية (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما ،فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) حيث تصبح الآية الأول من هذه الآيات ست كلمات بدلا من أربع ثم التى تليها تزيد كلمة لتصبح سبعا .وتأتى الثالثة فى ثمان كلمات ، وبالتأكيد فإن هذه الإضافات الصوتية تعبر عن تصاعد مستمر فى البنية الصوتية للسورة لتحقيق هدفها فى إدخال الهول فى نفوس الناس ، والزيادة فى الأولى جاءت من خلال إضافة وصف مخيف معبر عن روح التدمير فى هذه الريح وهى كلمة (صرصر) ، وفى الثانية نتج عن توضيح التمييز لبيان الشمول وفى الثالث كانت الإضافة نتيجة الصورة البيانية " التشبيه" الذى يحقق هدفه المعنوى كما شرحته فى موضوع التصوير ، وهكذا تحقق كل هذه الإضافات الهدف صوتيا وبالتالى معنويا من خلال تهيئة المتلقى عن طريق الصوت لتمثل المعنى واستيعابه بعد ذلك .

وفى القسم الثانى من السورة نجد تصاعد النبرة سمة بارزة أيضا ، وإن كانت هنا تتراوح كل آيتين أو ثلاث ، لأنه فى هذه الحالة يركز علىإقرار حقيقة القيامة بجانب الترهيب منها ، والتنويع الصوتى هنا ضرورى لعدم إحداث رتابة، بل إن التنوع يثير الذهن ويجعله يقظا متنبها دائما ، وذلك لأن العرب الذين نزل فيهم القرآن أولا كانوا على

درجة كبير من الوعى بإيقاع الشعر كما يلحظ ذلك كمال أبوديب فى البنية الايقاعية للشعر العربى فيقول :" عبرت الفاعلية الشعرية عند العرب عن نفسها بغنى إيقاعى مدهش ، ولئن كانت رتابة الصحراء والسياق المادى للحياة قد انعكست فى مظاهر أخرى للنشاط الفنى، لقد حفل إيقاع الشعر بحيوية وتنوع هما نقيض الرتابة المباشر ، بل ربما كانت الحيوية المنبعثة من تنوع الإيقاع صورة لحنين لا واع لرفض الرتابة، بالغناء، الغناء المرهف ، المنسرب ، المائخ ، الراقص، الصاخب أحيانا، الهمس أحيانا ، والهازج الراجز أحينا وتنامت الفاعلية الشعرية وازدهرت فى غياب أى وعى لوجود نظام نظرى لتشكلات الإيقاع الشعرى ، لكن الحس المعجز بحركة الايقاع وتغيراته كان دون شك خصيصة فطرية جذرية فى الإنسان – الشاعر " (١).

وإذا كان كمال أبوديب قد أدرك هذا وطرحه فى إطار مشروعه لإيجاد بديل عروضى لعروض الخليل بن أحمد ، فإننا هنا نقول إن الله الذى أنزل القرآن الكريم يعلم طبيعة هؤلاء الناس بل وطبيعة البشر عامة ، ولذلك فإن معظم السور المكية اعتمدت التقسيم الموسيقى والإيقاع إطارا لها لبث مضامينها العقدية ، ونحن نقر أيضا بأن القرآن ليس شعرا ولا نثرا بمفهوم البشر للنثر ، ولذلك أيضا كان التنويع

---

(١) كمال أبوديب : فى البنيــــة الإيقاعية للشعر العربى . ط ١ . بيروت . ١٩٧٤، ص ٤٣.

الصوتى والإيقاعى ضروريا حتى يظل الذهن المتلقى لهذا القرآن يقظا منتبها .

ولو تأملنا القسم الثانى من السورة لوجدنا أنه يتمتع بهذه الميزة فالآية الأولى تتكون من خمس كلمات والثانية من ست ثم تأتى التالية لها فى ثلاث كلمات ، ثم تعود خمس كلمات وتتصاعد إلى ثمان يمكن تقسيمها حسب الوقف الموضوع عند الكلمة الثالثة إلى جزءين أى تتكون من ثلاث + خمس . والآية التى تليها تكون من خمس كلمات أيضا مع بعض التنويع فى الحركات والسكنات .

وحينما تقر الأمور نجد الخط الإيقاعى والصوتى يتغير فيتحول من الطول إلى القصر أي يصبح خطا تنازليا فتبدأ الآية الأولى فيه طويلة (فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم أقرؤوا كتابيه) ثم تليها آية أقصر منها (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) ثم تقصر فيما بعدها (فهو فى عيشة راضية) وأقصر فى (فى جنة عالية . قطوفها دانيه) وحينما يتحدث عن موقف أهل الشمال يبدأ أيضا بالطول ثم يتبعه بالقصرويعود يتصاعد مرة ثانية هكذا (وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه) وتقصر بعد ذلك تدريجيا (ولم أدر ماحسابيه * ياليتها كانت القاضية * ماأغنى عنى ماليه * هلك عنى سلطانيه) ويعود الإيقاع إلى التصاعد فى صورة عودة إلى نغمة الترهيب الأولى فى السورة (خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه). وهكذا تتضح الروح الصوتية السائدة فى السورة معبرة عن وحدتها .

ب- الفاصلة مظهر آخر من مظاهر البنية الصوتية :

نأتى إلى مظهر آخر من مظاهر البنية الصوتية فى سورة الحاقة تحقق تكاملها ووحدتها وتبدأ السورة بنهاية واحدة للآيات حتى الآية (٢٩) وهى هاء السكت باعتبار حكم الوقف على التاء المربوطة فى أحكام التلاوة والتجويد لتصبح هاء سكت عند الوقوف عليها فى القراءة والوقوف على فواصل الآيات .

ولتواصل حركة الفواصل نجد بعضها الذى ينتهى بحرف غير التاء المربوطة مثل التى تنتهى بالياء تضاف إليها هاء السكت حتى تظل الفاصلة على وتيرتها الزاجرة المنبههة وذلك فى قوله تعالى: (هاؤم اقرؤوا كتابيه * إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) علىلسان الرجل من أهل اليمين ، وكذلك فى قول صاحب الشمال :(وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه * ولم أدر ماحسابيه) ثم قوله (مأأغنى عنى ماليه * هلك عنى سلطانيه) .

وقد اختلف القراء فى إثباتها عند الوصل لكنهم جميعا اتفقوا فى إثباتها عند الوقف كما أشارت إلى ذلك كتب التفسير والقراءات. وقد أثبت كثير من الدارسين أن حدوث هذا الأمر يكون سببه المناسبة بين الفواصل لتخرج فى اطار واحد حتى ولو كان ذلك مخالفا للأصول كما ذكر أحمد أبوزيد والسيوطى ، وقد بين الزركشى أن هذا النسق من أجل خدمة المعنى المقصود فى السورة يقول:" اعلم أن من المواضع التى يتأكد فيها إيقاع المناسبة مقاطع الكلام وأواخره ، وإيقاع الشئ فيها

بما يشاكله ، فلابد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أولا ، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض، وفواصل القرآن الكريم لاتخرج عن ذلك "(١).
ويعلق أحمد أبوزيد على ذلك بقوله : " إن الفاصلة القرآنية تأتى متمكنة فى موقعها ، مستقرة فى مكانها يتعلق معناها بمعنى الآية بحيث لو طرحت أو غيرت لاختل المعنى وفسد النظم ، لأنها لم تكن مجرد حلية لفظية، بل جزء أصيل من البناء المحكم للعبارة إن لم تكن هى حجر الزاوية فى ذلك البناء"(٢).

وإذا طبقنا هذا على سورة الحاقة وخاصة الجزء الأول منها حتى الآية التاسعة والعشرين فإننا نجده يمضى على هذا النحو حركة مفتوحة ثم هاء السكت، ولاشك أن فى إضافتها إلى الكلمات المنتهية بالياء له دلالته المعنوية المرتبطة بمعنى الحاقة وهيبتها فهاء السكت تضيف إلى الفتحة انفتاحا فى الصوت وامتدادا له ليزيد الأمر وضوحا يتفق ومعنى الحق والمكاشفة التى تتم فى هذا اليوم ، وكشف الغيب فيه سواء عما حدث للأمم السابقة أو المستقبل الغيبى المتمثل فى يوم القيامة .

وإذا رجعنا إلى ماذكره بدرى عبدالجليل فى براعة الاستهلال فى فواتح القصائد والسور وخاصة الحروف المقطعة لتدعم هذا الرأى

---

(١) أحمد أبوزيد : التناسب البيانى ، ص ٣٦٩ . نقلا عن البرهان للزركشى ، ج١ ، ص ٧٨.

(٢) المرجع السابق ، الصفحة نفسها

واتضح أكثر يقول فى تحليله لـ(كهيعص) فهو يقول عن " الهاء" إنها فى اللغة تعنى الأمر (ها: فى اللغة : هاء للأمر : تأهب له وأعد نفسه لمزاولته، وفيها أيضا : كجاء ومعناه التلبية ، ويا : فى اللغة تنبيه وتذكير . وهى فى النداء والأمر)[1] ،وبترتيبها فى سورة الحاقة تكون الياء للنداء والأمر أو التنبيه والتذكير وتتبعها الهاء لإعداد النفس لمزاولته وحتى للتلبية ، وكأن آيات القرآن تحث المتلقين على الاستعداد للقيامة بضبط أمورهم الدنيوية فى إطار تجنب موقفها الصعب.

وعندما انتقل الحديث إلى عقاب المجرم فى حق نفسه تغير إيقاع الفاصلة ليحقق الهدف وليعبر عن قمة الغضب وحزم الأمر وإغلاقه دون رحمة الله سبحانه وتعالى (خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه) بمقطع صوتى ممدود ومقفل فى آن واحد .وفى الوقت نفسه يسير مع المقطع الأول من السورة المنتهى بهاء السكت، ومن ثم فهو لايبعد كثيرا عنه فى النهاية غير تسكين ماقبله وإغلاقه ليعبر عن الغضب الإلهى من هذا الصنف من الناس .

وتتحول الفاصلة إلى الصوت الممدود المنتهى بالمد بأحد الحروف اللينة الألف والواو والياء والميم أو النون ، وهما أكثر النهايات ورودا فى الفواصل القرآنية ، كما يذكر ذلك نعيم اليافى عند

---

(١) محمد بدرى عبدالجليل : براعة الاستهلال فى فواتح القصائد والسور ، ط٢ ، المكتب الإسلامى ، بيروت ، ١٩٨٦، ص ١٧٧.

حديثه عن الفاصلة في بحثه المنشور في مجلة التراث العربي على مدى العددين الخامس عشر و السادس عشر ، وإن كان يركز على الحرف الذي قبل النون والميم والذي يعرف في العروض الشعري بحرف الردف ويرى أن حرفي الياء والواو هما اللذين بنى عليهما ايقاع الفاصلة القرآنية ، ودعم ذلك بتغداد الفواصل القرآنية التي تنتهي بأحدهما منها ٢٦٧٢ بالياء ، و ٢٠٤٨ بالواو بينما اختصت بالألف ٢٤٥ فاصلة فقط(١). ولذلك بنى حكمه على هذا دون الالتفات إلى الحرف الذي يليها سواء كان النون أو الميم الدال أو الراء أو غير ذلك من الحروف .

وقد كانت لفتة ذكية وإن كانت غير متوافقة مع رأي علماء العروض ولذلك جاء محمد الحسناوي في كتابه " الفاصلة في القرآن الكريم" ليثبت " أن الفاصلة الأثيرة في القرآن هي النون الساكنة المردوفة بواو أو ياء ، فالمردوفة بالواو ١٧٥٨ مرة والمردوفة بالياء ١٢٩٢"(٢).

والحقيقة أنني أرى أن العدد ليس هو المهم بل تناسب الفاصلة مع المعنى المقصود هو الأهم ومن ثم تكون دلالة توارد هذه الفاصلة أو تلك في مكانها ولذلك يراعى فيها " أن تكون قادرة على الوفاء بحق

---

(١) نعيم اليافي ، الفاصلة القرآنية ع ١٥، ١٦ من مجلة التراث العربي.

(٢) محمد الحسناوي : الفاصلة في القرآن الكريم ، ط ١ ، دار الأصيل ، حلب سوريا ، ١٩٧٧، ص ٣٥١.

المعنى وحق التناسب الإيقاعى فى آن واحد، وبلاغة القرآن المعجزة تظهر فى جملة ما تظهر فيه فى اختيار الكلمة المناسبة لهذين الغرضين"[1].

وهذا يلفتنا إلى استخدام اسم الفاعل فى الجزء الأول فى مواضع يأتى فيها المصدر مثل " باقية" حيث يرى المفسرون أن اسم الفاعل هنا بمعنى المصدر ، وإن كان بعضهم يراها وصفا للشئ الباقى ؛ لأن التعبير البشرى العادى سيأتى بالمصدر (بقاء)، وكذلك " الخاطئة " لأن هذا بمعنى " الخطأ " أو بتعبير القرآن " الخطيئة " ، ولكن لمسايرة الفاصلة جاوبها على صيغة اسم الفاعل، ومع تقديرى لكل هذا ، فإن صورتها التى جاءت بها فى السورة هى الأبلغ والأفضل ولها مبررها اللغوى الصحيح ، فالمصدر (بقاء) ربما يكون محدود الدلالة على الأثر المادى ، أما اسم الفاعل فدلالته أوسع لأنه يشمل جميع الآثار سواء كانت مادية أم بشرية أم فكرية ، وكذلك " الخاطئة " أولى وأفضل دلاليا، لأن المصدر " الخطأ" و " الخطيئة " تقف دلالته عند الخطأ الواحد أو الخطيئة المحددة المعنى ، لكن اسم الفاعل دلالته أوسع وأعم وأشمل لجميع الأخطاء التى ارتكبوها واسم الفاعل معبر عن دورهم فى الخطأ وبالتالى تحملهم المسئولية عن هذه الخطايا، ولم تحدث منهم عفوا أو رغما عنهم ، هذا بالإضافة إلى توافقه الصوتى مع الفاصلة فى السورة .

---

(١) أحمد ابوزيد : التناسب البيانى ، ص ٣٥٧

ولأن القسم الثالث يتحدث عن القرآن الذى يصف المشاهد السابقة وكأنها حقيقة ماثلة جاءت الفاصلة متوافقة مع اللون الشائع فى القرآن كما أشار الباحثون وأشرت إليه فى الفقرة قبل السابقة إما بالواو والنون أو بالياء والنون، وهذاماجعل سيد قطب يقول فىالظلال " ويشارك إيقاع الفاصلة فى السورة برنته الخاصة ، وتنوع هذه الرنة ، وفق المشاهد والمواقف فى تحقيق ذلك التأثير الحى العميق . فمن المد والتشديد والسكت فى مطلع السورة:(الحاقة ماالحاقة وماأدراك ماالحاقة ؟) .. إلى الرنة المدوية فى الياء والهاء الساكنة . سواء كانت تاء مربوطة يوقف عليها بالسكون أو هاء سكت مزيدة لتنسيق الإيقاع ، طوال مشاهد التدمير فى الدنيا والآخرة ، ومشاهد الفرحة والحسرة فى موقف الجزاء . ثم يتغير الإيقاع عند إصدار الحكم إلى رنة رهيبة جليلة مدوية (خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلوه .." ثم يتغير مرة أخرى عند تقرير أسباب الحكم ، وتقرير جدية الأمر إلى رنة رزينة جادة حاسمة ثقيلة مستقرة على الميم والنون " إنه كان لايؤمن بالله العظيم . ولايحض علىطعام المسكين . فليس له اليوم هاهنا حميم ، ولاطعام إلا من غسلين " .. " وإنه لحق اليقين . فسبح باسم ربك العظيم " .. وهذا التغير فى حرف الفاصلة وفى نوع المد قبلها وفى الإيقاع كله ظاهرة ملحوظة تتبع تغير السياق والمشاهد والجو وتتناسق مع الموضوع

والصور والظلال تمام التناسق . وتشارك في إحياء المشاهد وتقوية وقعها على الحس في السورة القوية الإيقاع العميقة التأثير"(١).

ولعل هذا يمكن تفسيره بما قاله صلاح فضل في بلاغة الخطاب وعلم النص وهو " أننا عندما نتحدث عن نص أدبي فإننا نحيل إلى أفق أو فضاء خاص له حدود معينة ، وتتجلى في هذا الفضاء – بطرق متفاوتة في الصفاء – مجموعة من الدلالات التي يسمح بها النص وهي دلالات يتعين على القراءات النقدية تحديد مكوناتها وكشفها وتفسيرها بمنظور أسلوبي أو بنيوي أو سيميولوجي. حيث تمثل شبكة من التقنيات الفنية المحددة ، مثل الاستعارات والرموز ، وأشكال التكرار والتوازي وأبنية الإيقاع ، والصور النحوية والشفرات السردية المختلفة. مما يتميز به النص الأدبي عن النصوص اللغوية الصرفة، ويدعو قارئه إلى أن يتبين فيه دلالات مفتوحة غير أحادية . منسجمة مع شكل الخطاب ، ومرتبطة في الآن ذاته بطبيعته التعددية".(٢)

فإذا تأملنا السورة القرآنية بصفة عامة وسورة الحاقة التي تناولتها بصفة خاصة وجدنا هذا التماسك النصي وتكامل البنى في النص من خلال الفضاء الخارجي المحدد . والنص المركب من مجموعة من الدلالات والتقنيات الفنية وأبنية الإيقاع وغيرها من

---

(١) سيد قطب : في ظلال القرآن ، ج٢٩، ص ٣٦٧٦ – ٣٦٧٧.

(٢) صلاح فضل : بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة ، الكويت ، عدد رقم ١٦٤ ، أغسطس ١٩٩٢ ، ص ٢٣٣.

الأشكال التعبيرية التى ترد فى سياق متكامل ، تتكامل فيه كل هذه البنى لتخرج لنا نصا ذا وحدة واحدة مترابطة ، وهى فى النهاية تدعو قارئها إلى تبين دلالاتها حتى يتعمق فى نفسه الإيمان بمقولاتها والعمل بها ، وإذا أضفنا إلى ذلك مايقوله الأسلوبيون حول الرسالة والمرسل والمرسل إليه أو الباث والمتلقى لوجدناها تتكامل فى هذا الإطار ، وتصبح الرسالة / السورة مكثفة دلالاتها لتصل إلى المتلقي كما أراد لها مرسلها ومنزلها وهو الله سبحانه وتعالى.

النموذج الثانى

سورة المجادلة ودوران النص حول محور

النموذج الثانـــى

سورة المجادلة ودوران النص حول محور

هذه السورة مدنية، وتختلف فى أسلوبها بالطبع عن سورة الحاقة (النموذج الأول) لتتوافق مع الفضـاء الـذى نزلـت فيـه ، وهـى الفترة المدنية بكل ماتجلى فيها مـن مظـاهر تأسيس الدولـة الإسلامية وإقامـة العلاقات والنظم بين أفرادهـا ،وتنطلـق مـن الخصـائص العامـة للقـرآن المدنى التى أقرها المفسرون وعلماء القرآن الذيـن تحدثـوا فـى علومـه، وبالرغم من أن هذه الخصائص ليست قطعية بمعنى أنها تعد خصـائص فاصلة بحيث لانجد فى هذه السورة مايخالفها ، إلا أنها نتجت مـن غلبـة الخصائص.

ومن بين هذه الخصائص وأبرزها فى القرآن المدنى أنه يتنـاول الحدود والأحكام والمعاملات ، وهذا يعنى تعدد الموضوعات فى داخـل السورة الواحدة ، مما جعل بعض الذين تحدثوا عن وحدة السورة أو فى موضوع التناسب يحجمون عـن ذكر الأمثلـة مـن هـذه السـوروإن كـان كثير منهم أشار إلى أنها تجرى فى إطار وحدة موضوعية ، مع أنهم لم يفصلوا القول فيها .

وقد تحدث علماء القرآن حول سورة البقرة جاعلين منها نموذجا لوحدة السورة بـالرغم مـن تعدد الموضوعـات فيهـا وذلـك عـن طريـق ربطهـا ببعضهـا حـول عدة موضوعـات تبـدأ بمقدمـة وأربعـة مقـاصد وخاتمة كما عند محمد عبدالله دراز ،ومـرة ثانيـة خمسـة مقـاصد مـع

المقدمة و الخاتمة كما عند السيد تقى الدين أو حول محورين كما عند سيد قطب هما محور الكفر ومحور الايمان وبينهما المنافقون ، وإن كنت أرى أن السورة تدور حول بنية أساسية هى قصة البقرة التى تعد المحور الأساسى الذى تلتف حوله موضوعات السورة ،ولذلك كان اسمها التوقيفى التى تدل عليه كثرة من الأحاديث التى رويت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ويذكر فيها اسم السورة صراحة باسم سورة البقرة ، ولو تم تحليل مضمونها وتتبعه من خلال الموضوعات المتعددة التى وردت فيها لوجدوا الدليل الواضح على وحدتها من خلال اسمها .

ونحن هنا أمام نص يدور حول محور يعد البنية الأساسية الرابطة للموضوعات التى وردت فيه ، ويتجلى ذلك فى الفضاء الذى يمكن إحالة النص عليه ، حيث نزلت السورة فى المدينة بكل أبعادها وأحوالها من وجود فريق المؤمنين من المهاجرين والأنصار ، وبجانبهم اليهود وبين هؤلاء وأولئك عدد من المنافقين يسعون إلى كسب الود، وبين كل هذه الطوائف علاقات وتعاملات بعضها جيد ويدخل فى إطار السلوكيات الإسلامية، وبعضها خارج عن حدود الآداب الإسلامية الرفيعة، ولكن لم يرد نص يحدد موقفها أو يبين حكمها ، أو على الأقل يوجهها الوجهة الإسلامية المثلى.

هذه الدولة الوليدة تسير بعناية الله وتحت سمعه وبصره ، وهو مرسل النبى صلى الله عليه وسلم إليهم وباعثه فيهم (يتلو عليهم آياته

ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) وهو منزل القرآن لهدايتهم إلى الطريق الصحيح (الصراط المستقيم) ويراقبهم فيسمع ويبصر ويعلم مايسرون ومايعلنون ، وينزل إليهم من آياته مايصحح لهم مسارهم إن أخطأوا، وإن اختلفوا فى أمر ينزل على نبيه حكمه فيه ، ومن ثم يصبح المرجعية الأساسية كما يقول علماء النص يمكن أن تحال عليه جميع الإشارات والعلامات وجميع الأمور.

يشير صبحى الفقى إلى أن عناصر تحليل النص تتلخص فى :

١- أهمية الجملة الأولى .

٢- الإحالـــــة.

٣- التماســـك .

٤- التواصل بين المتحدث والمتلقى والسياق .

هذا إضافة إلى وسائل التماسك وهى (وظيفة الضمائر ، الإشارة ، الصلة ، الحذف، التوابع ، التكرار ، المناسبة.."[1].

ونحاول فيما يلى بيان وحدة سورة المجادلة من خلال هذه الأدوات النصية ومايمكن أن نفيده من البنيوية والأسلوبية ..

---

(١) صبحى الفقى : علم اللغة النصى ، ج ١ . ص ٥٩.

أولا: العنوان أو اسم السورة والجملة الأولى فيها :

اسم السورة هو المجادلة بفتح الدال كما هو مثبت فى المصحف العثمانى بالرغم من أن الألوسى فى روح المعانى يقول إنها :" بفتح الدال وكسرها ، والثانى هو المعروف "(١)، ويبدو أنه ركز على المرأة التى تجادل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهذا يقصر معنى السورة تماما على المناسبة الخاصة التى ذكرت فيها ،وهو مايخالف مااتفق عليه المفسرون فلم يشر واحد منهم إلى نطقها بكسر الدال ، ولذلك كان غريبا أن يقول : إنه هو المعروف.

ثم إذا كانت السورة نزلت فىمناسبة خاصة إلا أنها انطلقت إلى معان عامة تتعلق بهذا الموضوع وهو مأطلق عليه محور السورة ومن أجله سميت باسمه ، لأنه المنطلق الذى انطلقت منه كل الموضوعات التى تناولتها السورة، فقضية الظهار حكم فيها من خلال مجادلة المرأة للرسول عليه الصلاة والسلام، والمناجاة التى حكم فيها ظهرت من خلال مجادلة الناس حولها ثم عمم الأمر بمحادة الله ورسوله ، وكان أبرز مظاهر المحادة للرسول هى المجادلة الدائمة له حول ماينزل عليه من آيات للطعن فى نبوته ، ولأن بعضهم من اليهود وهم أهل الكتاب فإن هذا اللجاج يعد تحديا لله الذى أخبرهم فى كتبهم بهذا النبى الكريم.

---

(١)الألوسى : روح المعانى ، ج ٣٠ ، ص ٢ .

ولنوضح الأمر أكثر فإن هناك أولا علاقة قوية بين اسم السورة وبين الآية الأولى حيث يقول الله عز وجل (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير)، والمجادلة هى المصدر من تجادل ، وذلك أن المرأة التى نزلت فيها هذه الآيات كما توضح كل التفاسير ظلت تجادل الرسول صلى الله عليه وسلم حتى بعد أن بين لها أنها حرمت على زوجها بمقولته هذه ،وبالتالى تحول الحوار إلى جدل من جانبها ولذلك هناك قراءة لها (تحاولك) أى تحاول معك انتزاع حكم لصالحها ، وقد أثمرت محاولتها إجابة من الله ليس فى صالحها فقط ولكن فى صالح الأمة الإسلامية عامة .

ولنا هنا ملاحظة حول دقة التعبير القرآنى وعظمته فإنه لما تحدث عن المرأة نسب اليها المجادلة ،ولما أشرك معها الرسول صلى الله عليه وسلم قال (والله يسمع تحاوركما) جعل الحديث بينهما محاورة ؛ وهذا مؤشر دال على أمرين :

أولا: إن المجادلة أمر منهى عنه ، وقد قال الله تعالى: (ولاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) [1] لأن هؤلاء القوم الذين اشتهروا بالمجادلة استحقوا غضب الله بأسلوبهم هذا ،ولذلك قال :" إلا بالتى هى أحسن " ومرة ثانية يقول لنبيه : (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم

---

(١) النحل : ١٢٥.

بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين)[1]. ومن هذا المنطق قال تعالى (والله يسمع تحاوركما).

ثانيا : إن المجادلة تكون دائما سببا في الظهار فلولا احتدام المناقشة لتصبح جدالا ماحدث هذا الأمر ، ومن ثم يكون النهي عنها درءا لوقوع كثير من المشكلات التي تنتج بين أفراد الأسرة وخاصة أساسيها الزوج والزوجة (الأب والأم) مما يمكن أن ينعكس على بقية أفرادها ، وإذا كانت الأسرة هي نواة المجتمع وأفرادها يشكلون عصبه فإن الجدال الدائم الذي ينتهي إلى شقاق سوف يؤدي إلى انهيار المجتمع الناشئ أو حتى المجتمع المتماسك ؛ لأن النتيجة هي أن كل فرد سيكون منهكا نتيجة هذا الجدال والخلاف فلا يؤدي دوره ، والمجتمع الإسلامي في ذلك الوقت مجتمع ناشئ يحتاج إلى جهود كل أفراده في تدعيم وجوده وتطوره .

ولما كان الظهار نتيجة لهذا وفي الوقت نفسه مظهرا من مظاهر الجاهلية فإن العقوبة لابد أن تكون شديدة حتى في أبسط مظاهرها فهي تبدأ من تحرير الرقبة وهو أمر عسير إلا على الأغنياء وكانوا قلة في المجتمع الإسلامي ، ثم صيام شهرين متتابعين ، وفي ذلك معاناة شديدة، ثم إطعام ستين مسكينا وهو المظهر الأرحم من مظاهر العقوبة ، ولكنه صعب أيضا بالنسبة لكثيرين من أفراد المجتمع الإسلامي؛ لأنهم في

---

(١) العنكبوت : ٤٦.

غالبيتهم كانوا فقراء، ومن هنا تتضح خطورة الظهار ومن ثم خطورة المجادلة التى تؤدى إليه مما يبين ارتباطها بالموضوع الأول وهو حكم الظهار.

ثم تأتى صيغ التعبير لتوضح أسباب هذا الحكم الشديد (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم ، إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم. وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا ، وإن الله لعفو غفور) إذن فهناك إدعاء باطل، وهناك تجرؤ على حق الله سبحانه وتعالى فهو الذى يملك وحده حق التحريم ، وبالتالى يصبح هذا القول منكرا وزورا ومع هذا لم يغلق الله باب رحمته ، وإذا جمعنا الادعاء الباطل مع منكر القول وزوره نجد المجادلة التى تغير الحق وتحوله إلى باطل، وهذا ماوصف به اليهود (وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق)[1]. ولذلك يجب أن لايكون المؤمنون مثلهم ، ولكى يصون المجتمع الإسلامى وأفراده من المسلمين عن الوقوع فى هذا الخطأ جاءت العقوبة الشديدة.

وفى التعقيب على الحكم يقول : (وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم) حتى يجعل لهم حدودا يقفون عندها فلا يتجاوزونها ، لأن من يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه وهو أمر منهى عنه أيضا فى آيات كثيرة مثل " تلك حدود الله فلا تعتدوها" ومرة ثانية " تلك حدود الله فلا تقربوها " ، فإذا حدث وتعدى أحد أو قرب من هذه الحدود فإنه يكون

---

(١) غافر : ٥.

متحديا لإرادة الله ، وهذا أمر خطير يستوجب التهديد وغالبا ماينتج عن المجادلة .

ولذلك جاءت الآية التالية لأحكام الظهار فى حق هؤلاء المحادين والمجادلين (إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين) ولاشك أنهم اليهود ، وفى الآية إشارة إلى التقائهم مع من سبقهم من اليهود (كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) وكذلك المنافقين الذين يمالئونهم لأنهم هم الذين يخالفون أوامر الله ، ويحادونه بأحكام مما حرفوا فى التوراه ويغرون الناس بها مخالفة لما أنزل على محمد ولذلك جمع القرآن بين الله وبين نبيه (إن الذين يحادون الله ورسوله)، وتدعمه الآيات التالية فى الموضوع الثالث وهو المناجاة أو النجوى بلفظ القرآن، وأسباب النزول كلها تذكر أنها نزلت فى اليهود وماكانوا يفعلونه مع المؤمنين ، ومعظم مناجاتهم كانت بالإثم والعدوان ومعصية الرسول كما تذكر الآية ،ويحيونهم بدعاء الموت " السام عليكم " ويقولون فى تحد " لولا يعذبنا الله بما نقول ".

وهذا يشير إلى ترابط الموضوعات الثلاثة فى إطار المجادلة ، لتصبح هى الرابط الفعلى بينها جميعا ، ولأن هذه كانت سمة الرافضين والمحادين فإن الأمر يكون منهيا عنه بالنسبة للمؤمنين ، وإذا حدث ووقعوا فيها فلابد أن يتجنبوا طريقتها وموضوعاتها التى كان الكفار واليهود يخوضون فيها وتكون التعاليم الدينية إليهم منبثقة من عناية الله

بهم ورحمته بتوجيههم إلى السلوكيات القويمة ،ولأن مبلغ هذه التوجيهات هو الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الآيات توضح لهم الكيفية التى يتعاملون بها معه حتى يتميز سلوكهم عن سلوك هؤلاء المعاندين وذلك يتجلى فى أمرين ؛ الأول إفساح المكان لبعضهم البعض فى مجلسهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يتلقوا جميعا توجيهاته ، والثانى: إذا اضطرتهم المواقف إلى الحديث الخاص والمناجاة مع الرسول فيجب عليهم تقديم صدقات .

ثم تتحدث السورة عن المنافقين الذين ينحازون إلى هؤلاء المعادين لله ولرسوله من أول الآية رقم ١٤ (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ماهم منكم ولامنهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) وحتى الآية (١٩)، ويعود فى الآية العشرين إلى الذين يحادون الله ورسوله سواء كانوا من اليهود أو ممن يتولونهم من الكفار والمنافقين وفى النهاية ينفى هذا السلوك عن المؤمن مهما كانت درجة قرابته لهذا المعاند حتى وإن قيل إنها نزلت خاصة فى أبى بكر حينما هم بقتل أبيه لتعديه على رسول الله أو فى أبى عبيدة حينما قتل أباه يوم بدر لما وجده يهم بقتل الرسول كما أشارت كتب التفسير أو أسباب النزول[1]. هؤلاء الذين تجنبوا هذه السلوكيات كتب الله فى قلوبهم

---

(١) راجع فى ذلك السيوطى ، أسباب النزول ، تحقيق قرنى أبوعميرة، مكتب نصير بالأزهر بمصر ، ١٩٨٣ ، ص ٢٦٦، وتفسير ابن كثير ، ج ٤ ، ص ٣٢٩.

الإيمان فردعهم ذلك عن المجادلة والمحادة والمناجاة فأيدهم الله بروح منه ، وكافأهم فى الآخرة بجنات تجرى من تحتها الأنهار، وهؤلاء أصبحوا حزب الله وبالتالى هم المفلحون .

وإذا قال واحد ماعلاقة هذا ببداية السورة وموضوعاتها؟ فإن الإجابة فى نهاية السورة التى تتعلق بأولها ، فالله عز وجل نبه المؤمنين فى أولها بأنه سمع قول التى تجادل فى زوجها ، ونهى فى آياتها عن سلوكيات فتمثلوا الأمرين معا ؛ تجنبوا الخوض فى هذه السلوكيات المنهى عنها لأنهم عرفوا أن الله يسمع ويبصر فكانوا من حزب الله وحازوا الفلاح ، وبالتالى تكون النهاية نتيجة حتمية لبداية السورة وماجاء فيها من أوامر ونواه ، خاصة وقد تضمنت الآية الأخيرة وصفا لهم أنهم لايوادون من حاد الله ورسول أى مجرد مودة هؤلاء ، وليس الوقوع فيما وقعوا فيه ، بل إنهم ابتعدوا عن مودتهم مهما كان قربهم لهم .

أدوات التماسك النصى

بعد الحديث عن المحور الذى ينتظم السورة معبراً عن وحدتها ننظر فى الأدوات التى تبرز هذه الوحدة ، وهى ماعبر عنها علماء لغة النص بأدوات التماسك النصى .

أولا: المرجعية :

يبرز لفظ الجلالة (الله) أساسا مهما وفاعلا فى السورة كلها فلا نجده آية فى السورة تخلو من اسم الله مما يعد مرجعا يمكن أن تحال عليه السورة كلها وموضوعاتها ، ويجمع بين الصفتين الخارجية والداخلية ، بل إن بعض الآيات يرد فيها اسم الله أكثر من مرة ، ففى الآيات الرابعة والسابعة والثامنة والعاشرة والحادية والعشرين ترد مرتين ، وفى الآيات السادسة والحادية عشرة والثالثة عشرة ترد ثلاث مرات ، ثم نجد توافقا بين الآية الأولى (المفتتح) والآية الأخيرة (الخاتمة) حيث يرد لفظ الجلالة فى كل منهما أربع مرات مما يدعم صلتهما ببعضهما وارتباطهما كما أشرت من قبل ، وفى باقى آيات السورة يرد لفظ الجلالة مرة واحدة، وبالتالى فإنه أعده مرجعية داخلية يحال عليها تماسك النص ودورانه فى وحدة ، بمعنى أن كل موضوعات السورة تنطلق منه وتعود إليه .

وكما أشرت فى البداية فإن الجدل والمحاورة يكون بين طرفين هما العنصران الرئيسيان فى المدينة ، فريق المؤمنين ، وفريق

المشركين (والذى يضم اليهود والكافرين والمنافقين) ولذلك فإننا نجد أيضا الاسم الموصول " الذين " يعود إلى الاثنين معا ، وهو أكثر الأسماء الموصولة ورودا فى السورة فهو يرد ثلاث عشرة مرة فيها ثم يصاحب ذلك ورود الضمير " هم " كثيرا محمولا على مرجعية الاسم الموصول·(الذين) وقد تكرر أربعا وأربعين مرة أى ضعف آيات السورة وهذا يشير إلى هيمنة هذا الضمير بالرغم من أنه لم يرد فى بعض الآيات حيث اشتملت عليه أربع عشرة آية فقط وخلت منه ثمانى آيات مما يوحى أيضا بتركيز السورة على الحديث عن هؤلاء الناس بضمير الغيبة ، بينما بقيت الآيات الموجهة إلى فريق المؤمنين معتمدة على ضمير الخطاب دليلا على تواصلهم مع الله لإيمانهم به وبدينه وبرسوله، ويتضح ذلك من الآية الأولى ،والرابعة(ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله) والآية التاسعة (يأيها الذين آمنوا إذا تناجيتم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى إليه تحشرون) ثم الآيات الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة التى تتضمن توجيها لهم بالافساح فى المجلس عند رسول الله وكذلك حكم المناجاة معه ويستثنى من ذلك الآيتان العشرون والحادية والعشرون، فالأولى بالرغم من أنها تتحدث عن الفريق الآخر (المعادين) لم يرد فيها الضمير هم ولكنه عوض عنه باسم إشارة يوحى بالانفصال أيضا والبعد وهو (أولئك)، وكذلك يمكن حملها على الآية الخامسة التى ورد فيها الضمير والاثنتان تتضمنان حكما واحدا (إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم ، وقد أنزلنا

آيات بينات وللكافرين عذاب مهين) والآية العشرون تقول (إن الذين يحادون الله ورسوله أولئك فى الأذلين) ، وبالتأكيد فإن الكبت إذلال ، ودلالته واضحة على اليهود الذين حكم الله عليهم فى القرآن بالذلة (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله)[١].

وهذا الضمير الرابط ليس وحده الذى يرد فى السورة بل ترد فيها معظم الضمائر بكل أنواعها من ضمائر الخطاب والغيبة والمفرد والجمع ، مما يجعلنى أتصور وكأن السورة بنيت على الضمائر ، وإذا ربطنا هذا بموضوع المجادلة فإن الأمر يكون منطقيا لأن الجدل يتنوع ويطرق موضوعات متباينة ويشترك فيه أشخاص كثيرون ، فإذا أضفنا إليه موضوع المناجاة فإنها لاتكون إلا بين شخصين أو أشخاص وتتناول أشخاصا آخرين فرادى وجماعات ويلعب فيها الضمير دورا بارزا.

إننى أستطيع ان أقول إن السورة منظومة من الضمائر فلا تخلو آية من ضمائر متنوعة ، وفيها آيات لانكاد نشعر بألفاظها لغلبة الضمير عليها فمثلا قوله تعالى (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور) فباستثناء الجزء الأخير من الآية لانجد فى الآية فعلا أو اسما أو حرفا لايلحق به ضمير ،وتشاركها فى ذلك عدة

---

(١) البقرة، ٦١ ، وتكرر الحكم فىالآية ١١٢ من آل عمران ، ثم فى الآية ١٥٢ من الأعراف .

آيات فى السورة مثل قوله تعالى (يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه والله على كل شئ شهيد) وقوله (ألم تر أن الله يعلم مافى السموات والأرض مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شئ عليم) ثم قوله : (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شئ ألا إنهم هم الكاذبون) والآية الأخيرة وحدها تتضمن عشرين ضميرا بين هم وهى الأكثر ثم واو الجماعة ثم ضمير المفرد الغائب للمؤنث والمذكر بخلاف الضمائر المستترة بعد أفعالها .

الجملة الإفتتاحية ودورها الرابط:

تبدأ السورة بجملة " قد سمع الله" ثم تأتي في وسطها (والله يسمع تحاوركما) وفي نهايتها أي التعقيب (إن الله سميع بصير) أي شملت الفعل ماضيا ومضارعا ثم في النهاية اسم الفاعل منه أو الوصف وقد جاء على صيغة المبالغة فعيل للدلالة على هيمنته بعلمه ، وتتردد في الموضوعات الثلاثة دلالة الفعل الذي يشير إلى إحاطة علم الله بكل مايفعله الإنسان ويقوله فعندما يتحدث عن" الذين يحادون الله ورسوله" تأتي في الآية التي بعدها وهي مرتبطة بها لأنها تعقب علىأعمالهم يأتي قوله : (أحصاه الله ونسوه) والإحصاء لايكون إلا نتيجة للسمع والبصر ،وعند الحديث عن النجوى يبدأ الآية بقوله (ألم تر أن الله يعلم مافي السماوات والأرض) ولإثبات حقيقة ذلك أمام أعينهم بفضح مادار فيخلدهم (ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول) وهذا مرتبط تماما بسمع الله وبصره ، ويتوافق مع ماسبق أن حذرهم منه في سورة "ق" حينما قال (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ماتوسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)[١].

وعند الحديث عن المنافقين الذين يتخذون من هؤلاء المشركين أولياء يفضح كذبهم حين يقول (ويحلفون على الكذب) ثم (اتخذوا أيمانهم جنة) أي ليسوا صادقين في الحلف بل جعلوا من حلفهم هذا

---

(١) سورة ق : ١٦.

درعا يخفون وراءه كذبهم ، ويبين لهم أن هذا سيكون مسلكهم كذلك يوم القيامة(يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شئ ألا إنهم هم الكاذبون) ويتأكد علم مافى نفوسهم وكشفه بجملة (ويحسبون أنهم على شئ) لكشف مايفكرون فيه ولايظهرونه ، وبيان زيفه ولذلك يأتى التأكيد فى نهاية الآية (ألا إنهم هم الكاذبون) ويأتى التوكيد هنا باستخدام " إن " المؤكدة ثم ذكر الضمير المنفصل بعد المتصل .

وفى مقابل هؤلاء يكشف أسباب رضائه عن المؤمنين بالرغم من أنهم لم يعلنوا ذلك قولا بل طبقوا إمانهم فعلا حينما رفضوا موالاة المحادين لله ولرسوله ولو كانوا أقرباءهم بكل الدرجات ، ويوضح أن هذا كان نتيجة الايمان الراسخ فى قلوبهم(أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه) وهما أمران خافيان على الظاهر ، ولكنهما لايخفيان عن الله السميع البصير الذى سمع قول التى تجادل الرسول صلى الله عليه وسلم فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، وهكذا يتضح أثر الجملة الافتتاحية فى الربط بين موضوعات السورة.

ثم تأتى التعقيبات فى نهايات الآيات مدعمة هذا الرابط، وفاعلة أيضا فى وحدة السورة، وقد أفرد لها احمد أبوزيد فصلا كاملا فى التناسب البيانى ذاكرا آراء العلماء السابقين، ومفصلا أنواع التعقيبات فى القرآن كله ومبينا مدى التناسب المعنوى بينها وبين مضمون الآيات ومطبقا ذلك على سورة البقرة والقصص القرآنى ، وتأسيسا على

ماعرضه ومانتهى إليه[1] نطبق هنا الفكرة من خلال دلالتها على ربط موضوعات السورة ، وفى الوقت نفسه تطابقها مع المطلع وكذلك مع المحور الذى تدور حوله السورة "المجادلة" وما يتفرع منها من مناجاة ومحادة.

واذا نظرنا إلى ختام الآية الأولى نجده (إن الله سميع بصير) ثم فى الآية الثالثة يأتى قوله: (والله بما تعملون خبير) ويتكرر التعقيب فى الآية الحادية عشرة ثم يتكرر مرة ثالثة مع تغيير الترتيب (والله خبير بما تعملون) وفى الآية السادسة (والله على كل شئ شهيد) والآية السابقة تنتهى بقوله (إن الله بكل شئ عليم) لتتوافق مع بدايتها (ألم تر أن الله يعلم مافى السماوات والأرض) ،وحتى فى حديثه عن المنافقين ينهى آيتين بالعلم(ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) وبعدها مباشرة(إنهم ساء ماكانوا يعلمون) ليتضح الفارق بين علم الله وعلمهم الذى لايتخطى نواظرهم القاصرة التى لاترى إلا ماتريده نفوسهم وغرائزهم المادية والدنيوية.

وعندما ننظر إلى التعقيبات الأخرى فى الآيات الباقية نجدها تتراوح بين حالتى الترغيب والترهيب فعند المؤمنين نجد النهاية(وإن الله لعفو غفور)، و(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) و(فإن لم تجدوا فإن الله غفور رحيم) وفى النهاية (ألا إن حزب الله هم المفلحون)

---

(١) راجع أحمد أبوزيد : التناسب البيانى فى القرآن الكريم، من ص ٩١ - ١٢٥.

وعند الحديث عن الفريق الآخر نجد قوله تعالى (وللكافرين عذاب أليم) و (للكافرين عذاب مهين) و(حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير) ثم بعدذلك (فلهم عذاب مهين) و (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وبعدها (ألا إنهم هم الكاذبون) و(ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) وفى النهاية (أولئك فى الأذلين).

ويأتى الموقف الفصل فى الآية قبل الأخيرة (كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز) ، فهى معبرة عن حسم الأمر فى صالح فريق المؤمنين ، ومهما فعل الكافرون والمعاندون من جدال ومشاقة ومحادة فلن يفلحوا لأن الله كتب ، ولم يقل " وعد" ، و" كتب " تأتى كثيرا فى القرآن بمعنى فرض ،وهذا يعطى الثقة للرسول صلى الله عليه وسلم وفريقه من المؤمنين ولزيادة طمأنتهم ترد الخاتمة مدعمة لهذا الغرض وهذه الكتابة(إن الله قوى عزيز).

وفى النهاية نقول إننا أمام محور ترتبط به السورة وهو اسمها وتدعمه كل أدوات التماسك النصى التى تنطلق منه وتعود إليه، فالمجادلة كانت السبب فى نزول الآيات ،ومايتبع المجادلة من تحد لله ولرسوله تظهر آثاره فى الجدل الدائر بين فريق الكفر الذى يجمع الكافرين واليهود والمنافقين وعلى رأسهم الشيطان ، وفريق الإيمان الذى يضم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المؤمنين ويحوطهم الله بعنايته وسمعه وبصره وقوته وعزته ،كما تظهر آثاره فى النجوى التى هى من الشيطان أصلا وكانت سلاحا يستخدمه فريق

الكفر لإيذاء المؤمنين ، ووقع بعض المسلمين ضعاف الإيمان فيها ، فيتوعد الله الكافرين ويعلم المؤمنين كيف يطهرون أنفسهم من هذا الأمر ، وكل ذلك تبرزه أدوات التماسك من تكرار لفظ الجلالة الذى يعلم مايفعله هؤلاء وأولئك والذى يمثل مرجعية تحال عليه كل أدوات التماسك سواء كانت ضمائر أو أسماء موصولة أو جملا تعبيرية أو تعقيبات فى نهايات الآيات .

وإذا ربطنا كل ذلك بالفضاء الخارجى الدى يمثله سبب نزول السورة والظروف التى أحاطت بهذا النزول ، وهو فى الوقت نفسه يمثل مرجعية خارجية لتبين لنا وحدة السورة من خلال توافق المرجعية الداخلية مع المرجعية الخارجية ، فالحوار فى المدينة كان بين هذه الطوائف والرسول صلى الله عليه وسلم يرجع فى كل أمر من الأمور إلى الله سبحانه وتعالى ويتضح ذلك من إصرار المرأة على موقفها وثبات الرسول صلىالله عليه وسلم على حكمه وموقفه لأنه لايتخذ موقفا أويصدر حكما إلا بوحى من الله عز وجل ،ولذلك وجدنا لفظ الجلالة يشمل السورة كلها ، وكما يقول العلماء عنها انهاالسورة الوحيدة فى القرآن التى لاتخلو فيها آية من ذكر اسم الله . بل يرد أحيانا أكثر من مرة فى الآية الواحدة كما بينت.

التصوير ووحدة السورة:

مظهر آخر من مظاهر وحدة السورة يتمثل في ندرة الصور البلاغية فيها سواء كانت صورا كليةأو جزئية،وإن كانت الحقيقة أن السورة كلها ترسم لوحة للموقف بين المؤمنين والكافرين أو بمعنى أدق ترسم لوحة للحياة الاجتماعية في المدينة وقت نزول السورة، وتبرز الآيات الأخيرة منها هذه الصورة من خلال قوله تعالى(أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون)، وكذلك قوله تعالى عن المؤمنين (أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون)، فالصراع قائم بين حزبين والتقابل بينهما قائم وهو مايربط السورة كلها لتخرج وحدة واحدة من خلال هذه اللوحة الرائعة التي تبرزكل أوجه التناقض بين الفريقين، وعن طريق هذا التقابل بمصطلح علماء لغة النص أو التعارض بمصطلح البنيويين تتضح ملامح الصورة وتبرز جوانبها .

وتقف على هامش هذه اللوحة بجانبيها البارزين صورة المنافقين وهما يحاولون اللحاق بأحد الفريقين يسعون هنا ويسعون هناك ، وإن كان ميلهم إلى جانب الكافرين أكثر كما تبرزه الآيات لكنه يضعهم في هوامش باهتة تحقيرا لموقفهم ودورهم الباهت غير المنتمي إلى أحد الجانبين.

وترد بعض التعبيرات المصورة مثل قوله تعالى: إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) ، وفي الفعل

"كبتوا " استعارة تصريحية ، فقد شبه العذاب الذى وقع وسيقع على هؤلاء بالكبت الذى يعبر عن حالتهم النفسية فى الدنيا والآخرة ، فهم قد حصروا أنفسهم فى مفاهيم مادية وانساقوا وراءها ولم يفتحوا عقولهم ولاقلوبهم لما يتنزل عليهم من آيات الله (لهم قلوب لايفقهون بها ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل)[1]، وتكرر ذلك فى القرآن وصفا لهؤلاء الذين لايعقلون ماينزل عليهم من القرآن ، وهو إشارة الى ماسيحدث لهم فى الآخرة من تكبيل بالسلاسل فى النار وكبت نفسى رهيب من جراء العذاب الذى يحمل عليهم .

ثم يأتى التعبير الكنائى فى قوله تعالى (وإذا قيل انشزوا فانشزوا) والذى يفسره كثير من المفسرين على أنه الرفعة أو دعوة إلى الجهاد والصلاة بمعنى النفر إلى الاثنين ، ولكن النشوذ فى اللغة يحمل معنيين متقابلين ،الحياة والخلق كما جاء فى قوله تعالى (وانظر لى العظام كيف ننشزها) [2] أى نعيد خلقها وتكوينها ثم النشوز أى التمرد كما فى قوله تعالى :(وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلاجناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير) [3].

---

(١) الأعراف : ١٧٩.

(٢) البقرة : ٢٥٩.

(٣) النساء : ١٢٨.

والمعنى هنا يميل إلى الجانب الأول وهو الخلق بمعنى أن القيام إلى الجهاد والصلاة يعد حياة ، لأن به تقوم الدولة الإسلامية ، وهنا يتضح ارتباط هذا التعبير الكنائى بمحور السورة وجوها العام الذى يعبر عن حال المجتمع الإسلامى.

ثم يأتى التعبير الرائع (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله) وفيه استعارة مكنية حيث شبههم بالأشياء المادية الصغيرة التى يمكن أن يستحوذ عليها الإنسان أو الشيطان وفى هذا تحقير لهم ،وهو يتفق مع الصورة الأولى (كبتوا) فما داموا لم يعملوا عقلهم ولم يتدبروا موقفهم يصبحون كالأشياء المادية التى لاتعقل ولاتفهم ، ومن ثم تكون سيطرة الشيطان عليهم أمرا منطقيا حتى يستطيع التلاعب بهم، كما نفهم منه النتيجة التى تختتم بها الآية وتدعم الصورة (أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) فهم متحزبون تحت رايته وهو جامعهم كما يجمع الإنسان أشياء تحت سيطرته .

وإذا قارنا بين هذه الصور الثلاثة وجدناها تتفق مع المحور الأساسى للسورة ولوحتهاالكلية المتكاملة بجانبيها البارزين ، فاثنتان منهما تتحدثان عن فريق الكفر والمعاندة والمحادة وهما (كبتوا) و(استحوذ) ،وتكملان اللوحةأو توضحان صورة هذا الفريق فى إطارها ، فهم مكبوتون ، وحالتهم النفسية فى أدنى درجاتها فيتحولون إلى كائنات أو أشياء صغيرة حقيرة يمكن التحكم فيها ، وواحدة تتعلق بفريق المؤمنين ، وتعبر عن صورته المضيئة سواء فى حالة الاستنفار للجهاد

أو الصــلاة فهم كلهم حيويـة ونشـاط وبالتـالى وجوههم مبشـرة ولديهم الاستعداد الدائم لتلبية أوامر الله لأنهم يرون حياتهم فيها سواء فى الدنيـا أو فى الآخرة .

وهكذا يلعب التصوير حتى على قلته دوره فـى ربط أجـزاء السورة ببعضها وبيان وحدتها ،وتكريس مضمونها التوجيهـى للمؤمنيـن أو الذى يحدد أطر العلاقات بين أفراد هذا المجتمـع الإسـلامى الناشـىء بدءا من قائده محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع أفراده ، وحارسا له ضد أعدائه .

البنية الصوتية ووحدة السورة:

تمثل سورة المجادلة من الناحية الصوتية نموذجا للقرآن المدنى من حيث اختلاف بنيته الصوتية عن القرآن المكى ، فهى تعتمد على الجملة الطويلة وإن كانت لاتخلو من جمل قصيرة، وهذه الجمل الطويلة تقوم علىالتنويع الصوتى وليس على التراتب كما هو الحال مع السور المكيةوإن كان هذا أو ذاك يؤدى غرضه فى موضعه من إدخال المتلقى فى جو القرآن.

ولما كانت السورة تضع تعاليم للمؤمنين ليلتزموا بها وتدعوهم إليها ، وكان حرف الهاء كما ذكر بدرى عبدالجليل ونقله أحمد أبوزيد يوحى بالتلبية وفى الوقت نفسه هى للأمر ، فإن ورورد هذا الصوت كثيرا فى السورة يدل على وحدتها من هاتين الجهتين ، ولو تأملنا الآيات الثلاثةالأولى لظهر ذلك جليا (قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير * الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم ،وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير) فهذه الآيات الثلاثة تضمنت صوت الهاء تسع عشرة مرة، بل إن الآية الثانية وحدها تكرر فيها عشر مرات ، ويوحى بالدلالتين معا الأمر وضرورة تلبيته

والانتهاء عنه.

وسنجد كذلك الآيتين السابعة والثامنة اللتين تتحدثان عن النجوى وهو أمر منهى عنه إسلاميا إلا فىالخير كما تشير السورة نجد الآية الأولى يتكرر فيها صوت الهاء تسع مرات وإذا أضيفت اليها الهاء الناتجة عن الوقف على القيامة تصبح عشرا ، والآية التى بعدها يتكرر الحرف أو الصوت عشر مرات أيضا ، مما يوحى بالدلالة نفسها الأمر وضرورة تلبيته من جانب المؤمنين.

ولكن يجب أن أنبه أن هذا التوارد لايمثل تراتبا مملا أو يمثل ثقلا على الأذن بل يأتى فى إطاره القويم لينبه لا لينفر ، وليحدث انفتاحا فى الأذن يقابل انفتاح الصوت من مخرجه ، فهو من أحرف الإظهار الحلقية خاصة أنه يخرج من أقصى الحلق .

وإذا عدنا الىماذكره أحمد أبوزيد عن الفواصل المردوفة بالمد فى القرآن اعتمادا على ماذكره محمد الحسناوى فى الفاصلة القرآنية لرأينا أن الفاصلة المردوفة بالياء – وهى التى عدها أكثر شيوعا فى القرآن الكريم– هى الأكثر ورودا فى سورة المجادلة فقد انتهت بها اثنتا عشرة آية من جملة آيات السورة الاثنتين والعشرين وتليها الفاصلة المردوفة بالواو التى وردت عشر مرات فقط وإن كان الحرف الأخير لايكون النون أحيانا بالرغم من أنه يأتى اثنتا عشرة مرة فى السورة ويغلب على جميع الحروف الأخرى ،ويليه حرف الراء الذى يتصف بالتردد ، ويأتى فى نهاية خمس آيات ثم الميم ثلاث مرات وتأتى كل

من الدال والزاى مرة واحدة ، مما يوحى بتنوع إيقاع الفاصلة صوتيا ومناسبتها لما تتضمنه كل آية، وفى الوقت نفسه توحى بتناسب السورة مع المرجعية الخارجية وهى الصفة الغالبة على القرآن المدنى الذى تنوعت موضوعاته لاشتماله على الأسس والحدود التى وضعت لبناء الدولة الإسلامية ، وبالتالى كانت السور والآيات طويلة فى هذا الإطار، وتنوع الفواصل يأتى معبرا عن تعدد الموضوعات التى تناولتها السورة وإن كانت فى إطار وحدة واحدة .

وبالرغم من أن أحمد أبوزيد يرى فى بعض المواضع تجنب تتابع الصوت خوف الإثقال علىالسامع إلا أننا فىهذه السورة نرى هذا التتابع يؤدى وظيفته من غير إثقال أيضا فنجد فى الآية الثانية (الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم)، وربما كان التغير الإعرابى وسيلة لدفع ثقل التتابع وكذلك فى قوله (إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم) فقد تتابع حرف الكاف فى ثلاث كلمات متوالية ومع هذا لايشعر السامع والقارئ بأى ثقل مع ملاحظة أن أحمد أبوزيد يضرب مثلا من نفس السورة لرأيه وذلك فى قوله تعالى :(مايكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم)*١، ويرى أن عدم تكرار الرقم كان نتيجة (تجنب القرآن تكرار حروف الحلق فى كلمتين متتابعتين)(١)، مع أن الهاء أيضا من أحرف الحلق

---

(١) أحمد أبوزيد : التناسب البيانى ، ص ٣٠٢.

كما أشرت، ومن هنا يمكن أن أقول إن أى حكم أو رأى هو مسألة نسبية.

وبالتالى فإن تبرير عدم تكرار الرقم "أربعة" ليس من باب الثقل فقط، ولكن ربما يكون من الأساليب القرآنية فى حذف ماهو معلوم أو مايعرف بإيجاز الحذف الذى تحدث عنه كثير من القدماء وعدوه علامة بارزة على الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم .

وفى النهاية فإن السورة تلتزم إطارا صوتيا معبرا عن وحدتها سواء بتكرار حرف الهاء الدال فى حالتها على مضمونها ومرتبط ببنيتها ولتتوافق معه الفاصلة فى إحداث الأثر المطلوب منها كما عبرت عنه بنيتها التعبيرية والتصويرية والصوتية متوافقة مع المحور الأساسى الذى انطلقت منه الموضوعات وهو المجادلة بكل إيحاءاتها ونتائجها التى استتبعت إرشادا بالبعد عنها .

الخاتمـــــــة

الخاتمـــــــة

بعد استعراضى لهذين النموذجين أستطيع أن أقول: إن السورة القرآنية تنتظمها وحدة كاملة سواء اتفقت موضوعاتها بمعنى تركيزها على موضوع واحد كما فى معظم السور المكية أو تعددت موضوعاتها كما فى الصور المدنية ، فإنها كلها تقوم على وحدة واحدة تجلت فى أدوات التماسك النصى التى بينا وحدة السورة من خلالها فى إطار سياق اتصالى يجمع بين كل الأطروحات التى طرحها علم النص حديثا ، وإذا كان هذا العلم يحاول تطوير مقولات البنيوية أو الالتفاف عليها فإننى أرى أنه يكرسها وإن كان يضيف إليها دور القارئ أو المتلقى من خلال فكرةالسياق الاتصالى ويتضح هذا من النص الذى نقله سعيد بحيرى عن" شميث" الذى يقول فيه (وعلى عكس الاتجاهات الداخلية الباطنية التى تعرف النص بالنظر إلى مكوناته فإن الآراء الجديدة تعتمد فى نظرية النص على السياق الاتصالى ، ومايتضمنه عمليا ، وترى أن النصوص ليست سوى مجموعة من الرموز اللغوية المعبرة ، وأن وظيفتها إنما هى الاتصال الاجتماعى"[1].

ومعنى هذا أن هذا يتفق مع ماقلناه حول وحدة السورة وقد بينت أن السورة تتكون من مجموعة من الأبنية والرموز اللغوية سواء فىصورتها التعبيرية والدلالية أو التصويرية أو أصواتها لتحقق وظيفة

---

(١) سعيد بحيرى : علم لغة النص ، ط لونجمان ، مصر ١٩٩٧، ص ١١٩ .

اجتماعية تتعلق بالمجتمع الإسلامى ، ففى السورة الأولى كان تكريس مشهد القيامة هادفا إلى التزام المؤمن سلوكيات محددة والبعد عن أخرى من خلال طرح صورتى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال فى مبررات دخول الأول الجنة ودخول الثانى النار ، والسورة الثانية تهدف أيضا إلى إنشاء سلوكيات اجتماعية وهدم سلوكيات أخرى تناقضها أيضا من خلال المردة إلى الله سبحانه وتعالى.

ويدعم ذلك ماذكره سعيد بحيرى أيضا فى قوله (ومن الضرورى أن يوضع فى الاعتبار أن المكونات السطحية المتحققة على أسس اصطلاحية هى علامات لغوية قائمة علىأشكال من التبعيةالنحوية(علاقات نحوية مختلفة) ، الغرض منها تشكيل المعنى . أما العلاقات التى تعد عناصر ربط بين التصورات الواردة فى عالم النص ربما تكون صريحة فى النص أو بمعنى أدق ربما لاتعكسها الأبنية الموجودة على السطح بشكل مباشر ،ومن ثم يحتاج إلى تصور معرفى أكثر اتساعا حتى يمكن اكتشافها وتحديدها ووصفها بشكل كاف يصير معه النص مفهوما"[1].

وهذا التصور المعرفى الذى يستطيع اكتشاف الأبنية العميقة فى النص تحققه معرفة علوم القرآن ومناسبات النزول أى الجو المحيط به، ولايكون إلا عن إيمان وتعمق فى تمثل القرآن قراءة وسماعا وهو

---

(١) المرجع السابق ، ص ١١٩، ص ١٢٠ .

مـاأشار إليــه القـرآن بقولـه :" وإذا قـرئ القـرآن فاسـتمعوا لـه وأنصتـوا لعلكم ترحمون "[١].

هذه الوحدة للسورة تتجلى فى مظاهر كثـيرة ويـبرز منهـا اتفـاق خاتمتهـا مـع بدايتهـا والـذى يذكرنـا بمـا قالـه سـعد مصلـوح فـى مقالـه المنشور بمجلة فصول بعنوان " نحو أجرومية للنص الشـعرى" والـذى يشير فيه إلى ذكر اسم المحبوبة فى ختـام القصيـدة ليربطنـا بالبدايـة[٢]، وليظل النص بكل معانيه ماثلا فى ذهن المتلقـى يتضـح فـى موضوعنـا هذا فى سورة الحاقة بشكل صريح فى قوله تعالى : " وإنه لحق اليقيـن" عودا على البداية (الحاقة) ليظـل معنـى الحقيقـة- حقيقـة أفعـال النـاس وحقيقة القيامة – فى ذهـن السـامع والمتلقـى لـه قائمـة، وإن كـانت فـى سـورة المجادلـة غير صريحـة إلا أنهـا تحققـت مـن خـلال الربـط بيــن المقدمة والنتيجة فمن يتيقن من سمع الله السميع البصير ويخضع أفعالـه لهذا المعنى لابد أن يكون من المفلحين الذين هم حزب الله .

ولايعنى الحديث عن وحدة السورة أن كل واحدة منها تعد وحـدة مستقلة بل كلها تندرج تحت إطـار وحـدة شـاملة يمثلهـا النـص القرآنـى المعجز ، والذى هو كلام الله الذى لايأتيه الباطل من بين يديــه ولا مـن خلفه ، وهو يجرى فـى سـياق واحـد محـدد بقولـه تعـالى:" ذلـك الكتـاب

---

(١) الأعراف : ٢٠٤.

(٢) سعد مصلوح: نحو أجرومية للنص الشعر ، مجلة فصول مج ١٠ ، عدد١، ٢ ، ١٩٩١، ص ١٥٤.

لاريب فيه هدى للمتقين"[1]، فهو كله كتاب واحد وله سياق واحدوهدف واحد، وكل سورة فيه وإن كانت تنتظمها وحدة إلا أنها تمثل حلقة فى إطار الوحدة الشاملة للقرآن الكريم كما يتجلى فى هذه الآية الكريمة ، وكما أبرزه كثير من العلماء السابقين وأبرزهم السيوطى فى كتابه تناسق الدرر فى تناسب الآيات والسور وأوضحته فى القسم الأول من هذا البحث.

ولايعنى إفادتنا من علم النص أو علوم البلاغة الحديثة والنقد الأدبى أننا نخضع القرآن لهذه المفاهيم والمنطلقات بل نتيجة إطمئنان إلى أن معظم هذه العلوم يمكن أن تجد منطلقاتها وتطبيقاتها على القرآن الكريم، وتتدرج أيضا فى إطار تمثل أوجه الإعجاز القرآنى الذى لاينضب مهما تحدث فيه المتحدثون قديما وحديثا وسيظل أيضا نبعا ثريا لكثير من البحوث .

---

(١) البقرة :٢.

المصـــادر والمراجـــع

المصـــادر والمراجـــع

أولا : المصـــادر:

القــــــرآن الكريـــم

ثانيا :المراجـــع:

- أحمد أبوزيد (دكتــور) : التناسـب البيــانى فــى القـرآن الكريــم ، منشورات كلية الآداب بالرباط ، ١٩٩٢م.
- أحمد أحمد بدوى (دكتور): مـن بلاغـة القـرآن ، طبعـة دار نـهضـة مصر ، ١٩٥٠م.
- الألوسى : روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسـبع المثـانى ، ط دار التراث بالقاهرة، د.ت.
- الباقلانى (أبوبكر) : إعجـاز القـرآن ، إعداد ممـدوح حسـن محمـد ، الطبعة الأولى ، دار الأمين ، القاهرة ، ١٩٩٣م.
- الزركشى : البرهان فى علوم القرآن ، تحقيـق أحمـد أبـو الفضـل ، دار المعرفة ، بيروت ١٩٧٢م.
- الزمخشرى : الكشاف عن حقائق التنزيل ، الطبعــة الثانيـة، بـولاق، ١٣١٩هـ.
- سعيد بحيرى (دكتور): علـم لغـة النـص ، المفـاهيم والاتجاهـات ، الطبعة الأولى ،لونجمان ، القاهرة،١٩٩٧م.

• السيد تقى الدين (دكتور): من الوجهة الأدبية فى دراسة القرآن الكريم ، ط نهضة مصر ، د.ت .
• سيد قطب :
١- التصوير الفنى فى القرآن ، الطبعة العاشرة ، دار المعارف بمصر ، د.ت.
٢- فى ظلال القرآن ، الطبعة السابعة عشرة ، دار الشروق بمصر ١٩٩٠م .
٣- مشاهد القيامة فى القرآن ، الطبعة الثانية ، دار المعارف بمصر ، د.ت .
• السيوطى (جلال الدين):
١-الإتقان فى علوم القرآن ، الطبعة الثالثة ، الحلبى بمصر ١٩٥١م.
٢- أسباب النزول ، تحقيق وتعليق قرنى أبوعميرة ، طبعة مكتبة نصير بالأزهر بمصر ، د.ت .
٣- تناسق الدرر فى تناسب السور ، تحقيق عبدالله محمد الدرويش ، الطبعة الأولى ، دار الكتاب العربى بسوريا ، ١٩٨٣م.
• صبحى إبراهيم الفقى (دكتور): علم اللغة النصى بين النظرية والتطبيق ، الطبعة الأولى ، دار قباء بالقاهرة، ٢٠٠٠م.
• صلاح فضل (دكتور): بلاغة الخطاب وعلم النص ، عالم المعرفة الكويت ، عدد١٦٤ ، أغسطس ١٩٩٢م.

- الطبرى (محمـد بـن جريـر): تفسير الطـبرى طبعـة دار الفكـر ، بيروت ،١٩٨٨م.
- طه حسين (دكتور): مـرآة الإسـلام ، الطبعـة الثامنـة، دار المعـارف بمصر ، د .ت.
- فخر الدين الرازى : مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير ، طبعة دار الغد العربى، ١٩٩٣م.
- القرطبى : الجامع لأحكام القرآن ،طبعة دار الغد العربـى بالقـاهرة، ١٩٩٠م.
- ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ، طبعة المكتبة التوفيقية د.ت .
- كمال أبوديب (دكتور): فى البنيةالايقاعية للشـعر العربـى، الطبعـة الأولى ، بيروت ١٩٧٤م.
- محمد بـدرى عبدالجليـل (دكتور): براعـة الاسـتهلال فـى فواتـح القصائد والسور، الطبعة الثانية ، دار المكتب الإسـلامى ، بـيروت ، ١٩٨٤م.
- محمد الحسـناوى (دكتـور) : الفاصلـة فـى القـرآن الكريـم، الطبعـة الأولى ، دار الأصيل بسوريا، ١٩٧٧م.
- محمد عبدالله دراز (دكتور): النبـأ العظيـم ، الطبعـة الثامنـة ، دار القلم بالقاهرة، ١٩٩٦م

- محمد فؤاد عبدالباقى المعجم لمفهرس لألفاظ القرآن الكريم، الطبعة الثالثة ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٩٢م.
- محمد محمود حجازى: الوحدة الموضوعية فى القرآن الكريم ، الطبعة الأولى ، دار الكتب الحديثة بالقاهرة،١٩٧٠م
- مصطفى صادق الرافعى : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الطبعة التاسعة ، دار الكتاب العربى، بيروت ، ١٩٧٣م.

****

الفهـــــرس

رقم الإيداع ٢٠٠١/١٧١٠٧
I.S.B.N.977-241-388-6

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة ت : ٧٧٩٧٥٥٠